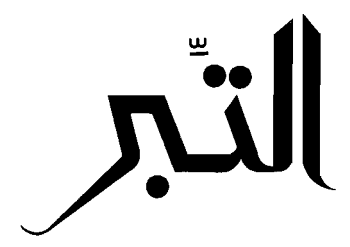
ابراهيم الكوني

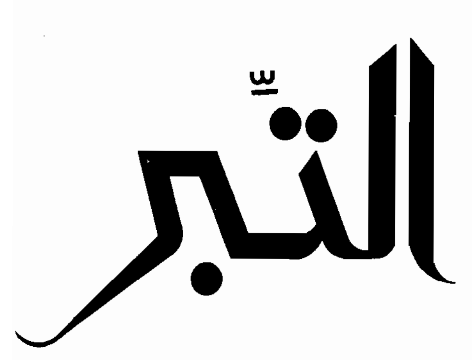
التبر






التبر

ابراهيم الكوني



* إبراهيم الكوني: التبر.
* الطبعة الثالثة: ١٩٩٢.

* الناشر: دار التنوير للطباعة والنشر تاسيلي للنشر والاعلام

133 Makarios Avenue
Classic House Building-Office No.4
Tel: (357-5) 387463
Fax: (357-5) 387464
Limassol - Cyprus

* المركز الرئيسي:
الصنوبرة ـ أول نزلة اللبان ـ بناية عساف ـ
الطابق السابع ـ تلفون ٨٠٦٣٥٩
ص. ب ٦٤٩٩ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

«ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة، وحادثة واحدة لهم. موت هذا كموت ذاك، ونسمة واحدة للكل، فليس للإنسان مزيّة على البهيمة لأن كليهما باطل».

العهد القديم
سفر الجامعة
الإصحاح الثالث

«.. في طاعة سلطان هذه المملكة بلاد مفازة التِّبر، يحملون إليه التبر كل سنة، وهم كفَّار همج، ولو شاء أخذهم، ولكن ملوك هذه المملكة قد جرّبوا أنهم ما فتح أحد منهم مدينة من مدن الذهب ونشأ بها الإسلام، ونطق بها الآذان، إلاّ قلّ وجود الذهب، ثم يتلاشى حتى يعدم، ويزداد فيما يليه من بلاد الكفّار».

ابن فضل الله العمري
«مملكة مالي وما معها»

- ١ -

عندما تلقاه هدية من زعيم قبائل آهجّار(*)، وهو لا يزال مهراً صغيراً، يطيب له أن يفاخر به بين أقرانه في الأمسيات المقمرة ويتلذذ بمحاورة نفسه في صورة السائل والمجيب: «هل سبق لأحدكم أن شاهد مهرياً(**) أبلق؟». ويجيب نفسه: «لا». «هل سبق لأحدكم أن رأى مهرياً في رشاقته وخفته وتناسق قوامه؟». «لا. .». «هل سبق لأحدكم أن رأى مهرياً ينافسه في الكبرياء والشجاعة والوفاء؟». «لا». «هل سبق لأحدكم أن رأى غزالاً في صورة مهري؟»، «لا». «هل رأيتم أجمل وأنبل؟». «لا. لا. لا. اعترفوا أنكم لم تروه ولن تروه». يقفز إلى الخلاء، ويحجل مقلّداً رقص المجذوبين حتى إذا تعب، انهار على الرملة، واستلقى على ظهره، ورفع صوته بأحد تلك الألحان السحرية التي يتحصن بها الفرسان المسافرون في الفلاة كتعويذة ضد الوحشة حتى يختم مواله الحزين بالأبيات المعروفة:

آسد ينكرد أمود نكفي تيزداج.

إذ شاغت تاجنين يتجير نيمزاد(***).

(*) آهجّار: قبائل عريقة تستوطن جنوب شرق الجزائر.

(**) الإبل المهرية: نجائب تسبق الخيل، منسوبة إلى قبيلة مهرة بن حيدان من اليمن.

(***) «آسد ينكرد أمود نكفي تيزداج، إذ شاغت تاجنين يتجير نيمزاد» (عندما أقبل أمود استقبلناه بمهاري الحرب ـ وأعطيناه فرساناً لا يخطئون الهدف). مطلع قصيدة طويلة لتمجيد الزعيم أمود في حملاته لصدّ الغزاة الفرنسيين.

وبلغ به عشقه للأبلق أن قصد شاعرة معروفة من قبائل «كيـل أبادا»، وطلب منها أن تقرض قصيدة مديح للمهري، تمجـد خصائله، وتـطري مـواهبه أسـوة بالفـرسان والأبـطال من المحاربين. وجلس طـوال المساء يحصي لهـا خصـائص الأبلق: «أبلق، رشيق، ممشـوق القـوام، نبيـل، شجاع، وفيّ. .»، ولكن الشاعرة الخبيرة قاطعته فجأة: «لا يعيب الفارس أن يعدد خصائص مهريه ويتحدث عنه كمـلاك، ولكن لقصائـد المديـح شروطاً. مهريك لم يذع صيته في معركة، ولم يشتهر في حفلات الرقص». ارتبك «أوخيّد» وأخفى خجله خلف زمالته. ثم قال فجأة: «ولكنه أبلق. يكفي أنه أبلق. هل سبق لك أن رأيت مهرياً أبلق؟».

قبلها أوكل للأتباع مهمة ترويض المهري وتدريبه على الشكيمة، ولكن رأى أنه من العار أن يسند إليهم مهمة ترويضه على الرقص أيضاً.

التدريب على الرقص في حضرة الحسان مهمة الفرسان في الصحراء.

- ٢ -

قبل أن يدخل به في حرم الحلقة حرص أن يعتني له بالزينة، استعار أغلب المستلزمات. . السرج والفرش والشكيمة والجراب والزمام وحتى السوط. لباسه القديم باهت وشاحب. أكلته الشمس ولا يصلح لتزيين مهري يتأهب للدخول في حرم الحسان ليتدرّب على التمايل على أنغام الموسيقى والإيقاع.

قضى نهاراً كاملاً وهو يعدّ له ثياب الحلبة. السرج صنعه أمهر الحدادة في غات، والفرش كليمة مزركشة جاء بها التجار من «توات»، والشكيمة ضفرتها عجائز قبيلة إيفوغاس في غدامس، والجراپ طرزته أنامل حسناوات «تامنغست». أمّا السوط فهو قطعة نادرة، مغطاة بخيوط الجلد التي نُقشت عليها تمائم السحرة في «كانو». ويعتقد الحكماء في القبيلة أن السوط دسّه له الحسّاد من أقرانه، فلعب دوره في التخريب وترتيب الفضيحة.

دخل الساحة بعد الظهر. في السهل تحلقت النساء حول الطبول، وكوّن الصبية حولهن طوقاً واسعاً، واتخذ الشيوخ موقعهم على المرتفع الجنوبي، واجههم من الناحية المقابلة الرجال والشباب وهم يتوّجون رؤوسهم بالعمامات الفخيمة الزرقاء، ويتهادون في خطوهم بكبرياء الطواويس. ورابطت المهاري في الأفق على جانبي العراء. صف تأهب في الغرب

والصف المقابل رابط شرقاً. كانوا يزفّون مطلقاً مزواجاً من الأتباع اختار أن يتخذ خلاسيّة حسناء رفيقة، مقرراً أن يذوق طعم الدم الممزوج بحرارة الزنج!

بدأ الاستعراض بالتشكيلات الثنائية.

بادر فارسان رشيقان من الجهة الغربية أولاً، فانطلق فارسان في مقابلهما من الناحية الشرقية، وتقاطعا بجوار حلقة الرقص، وكوفئا بعاصفة من الزغاريد.

تهيأ «أوخيّد» للانطلاق. بجواره تألق شاب من الأتباع معمماً بـ «تجولموست» ومطوّقاً بحزام جلدي بديع، يجلس في سرج منمنم مثبت على ظهر مهري رمادي أنيق. الشاب سيرافقه في مهمة العبور.

اقترب القادمان من الجانب الآخر. اقترب الشاب بمهريه حتى كاد يلتحم بالأبلق وقال:

ـ يحق ليّ اليوم أن أتباهى بمرافقتك. الأبلق مهري فريد في الصحراء.

ثم غمز بعينه المخفية في الكتان الأزرق. الملاحظة أزعجت أوخيّد. لأنه لم ير صدقاً في عيني رفيقه.

انطلقا.

انطلقا متلاصقين، ثابتين، متكبرين، متناسقين، منسجمين، فعاش أوخيّد في هذه المسافة القصيرة، الفاصلة بين العراء الممتد غرباً حتى حلقة الغناء في الوسط، دهراً من السعادة. كان إقبال المهريين المتلازمين بطيئاً متوازناً، ولكنه أحسّ أنه يطير في الفضاء على جناحين وقلبه يكاد ينفجر بالسحر والشجن والفرح الخفي. أسرته الموسيقى، فعاش رهين الرقص والوجد والشوق المجهول، وأحس أن الأبلق البهيّ يشاطره نفس الأحاسيس الشجيّة حتى بلغا الحلقة. لم يعرف كيف حدث ذلك. أفاق من

الحلم فوجد أن رفيقه قد مضى يتهادى نحو صف الفرسان، ناحية الشرق، وانحرف الأبلق يساراً، ودار حول حلقة الرقص. تضاحك الصبية، فشعر بالعار. امتدت يده إلى السوط السحري كي يحث الجمل على الانطلاق واللحاق بالرفيق. وما أن أحس الأبلق بوقع السوط على جسده حتى ركبه الجنون. لم ينحرف يميناً ويلحق بقرينه، وإنما رفس حلقة الصبية وفقد وقاره تماماً. عاود يمسّد فخذه بالسوط فاشتد جنون الحيوان. اخترق حلقة النساء، وحطم طبلاً أنيقاً مغطى بجلد غزال، فتفرقت النسوة، وتوقف الغناء. علت الهرجة. شدّ اللجام حتى طوّق رأس المهري الهائج بين ساقيه. ولكن هذا التدبير لم يوقف حركته الفوضوية في ساحة الرقص. استمرّ يرفس بخفّيه كل شيء في طريقه ويرغي ويلوك الزمام بوحشيّة. ثم بدأ الزبد يتطاير على النساء في كتل منفوشة ناصعة. هرعت إليه كوكبة من الجبابرة الراجلين وحاصروه بالحبال. قاومهم أيضاً فاضطروا إلى أن يصرعوه على الأرض.

صرعوهما معاً في ساحة الرقص.

- ٣ -

هذه ليست المرة الأولى.

سبق له أن ورّطه في فضائح أفظع.

فقد تعوّد أن يقوم بغزواته العاطفية الليلية إلى النجـوع المجاورة على ظهر الأبلق. يسرجه بعد المغيب وينطلق إلى ديار المعشوقات فيصل بعد منتصف الليل. يوثقه بالعقال في أقرب الأودية ويتسلل في الظلمات إلى خيم الحسان. يتغازل ويتسامر ويختطف القبلات حتى ينفلق أفق الصحراء عن الضوء، فيتسلل إلى الوادي ويقفز فوق السرج وينطلق عائداً.

تكررت الغزوات حتى اكتشف أن أبلقه الرشيق قد وقع في غرام ناقة حسناء تملكها قبيلة تعودت أن تقضي الربيع في وادي «المغرغر» واعتاد هو أن يزور فاتنة من بنات تلك القبيلة النبيلة. يتركه يرتع في قاع الوادي مع الإبل، ويذهب إلى فتـاته في المضـارب. ولم يغفل عن مشـاعر مهـريه العاطفية. فقد لاحظ هيامه بالناقة البيضاء منذ زياراته الأولى. وازداد يقيناً بعدما رأى كيف يطير الأبلق إلى «المغرغر» ويحترق شوقاً للسفر الليلي. فكان يشاكسه ويقول:

ـ لماذا تخبىء عنّي؟ اعترف أنك تطير إلى محبوبتك ولا تطير بي إلى محبوبتي. اعترف أن لا فضل لك في العدو هذه المرة! الأنثى هي السبب! هي السبب دائماً!.

فيرد عليه متمايلاً، ينثر الزبد، ويمضغ الرسن في عدوه السعيد:

- أو - ع - ع - ع . . . .

فيضحك أوخيّد، ويستمر في مداعبته.

حتى جاء يوم تفتق فيه الرتم عن زهوره الشجيّة.

عَقَلَهُ في الوادي، وتركه يرتع بجوار الرتم الفوّاح. ولم يكن يدري أن زهور الرتم هي الإشارة إلى أن الربيع حلّ ضيفاً في سهول الصحراء. وإذا حل الربيع فإن موسم الخصوبة والتناسل ينتقل إلى الجمال فتهيج ويركبها الجنّ.

هذا ما حدث في ذلك اليوم.

لم يمض وقت قصير على تمتماته في أذن الفتاة حتى سمع هدير الحيوان الهائج. في البداية ظنّ أنه رعد بعيد، فاستمرّ في ملامساته ومداعباته، فعاد الهدير يعلن عن نفسه بجنون أعنف. قفز من الخباء وهرع إلى الوادي. هناك اشتبك الأبلق مع جمل رمادي كريه في أشرس وأنبل معركة: كانا يتقاتلان للفوز بالناقة! تفتق الأفق عن ضوء الفجر. تبيّن في العتمة جراح المهري. مزّقه غريمه بأنيابه في الرقبة والفك، وأصابه في الفخذ الأيسر بجروح بليغة. ولكن الجمل البشع تلقى أيضاً الإصابات ونزف الدم. كان جسمه كله ملوثاً بالدماء.

الهرجة أيقظت الأهالي، فاندفع الرعاة إلى الوادي مسلحين بالهراوات. نجحوا بعد قتال طويل في أن يفصلوا بين الخصمين.

تدفقت الشمس، فأحس أوخيّد أنه ضبط عارياً. جاء شباب القبيلة إلى الموقع فرأى في عيونهم الاستنكار. عيونهم تقول إنهم يعرفون كل شيء. قادوه إلى شيخ القبيلة. عجوز نحيل، طويل القامة يمسك بعكاز أنيق من السدر مطوّق بدوائر جلدية موسومة بنقوش دقيقة. في وجنتيه تنثني غضون

عميقة، ولكن في نظرته تلوح عفوية وعافية ومرح مجهـول. أمر بـإعداد الشاي ودعاه إلى الجلوس على الكليم في الخيمة. قلّب عكاز السدر بين يديه، وقال بوقار:

ـ لا يعيب الرجل النبيل أن يعشق أو يهاجر للقاء، ولكن ما ضرّنا لو عملنا بشريعة المسلمين ودخلنا البيوت من أبوابها؟

ثم ابتسم وأضاف:

ـ يسرنا أن نستقبل ابن شيخ امنغساتن في ديارنا. فله يرجع الفضل في صدّ الغزاة الأغراب ووقف توغلهم في الصحراء.

فهم «أوخيّـد» أن الشيخ الحكيم إنمـا أراد أن يليّن ويهدّىء الشبـاب بحديثه عن الغزوات العاطفية وإشارته إلى دور والده في التصـدّي لغزاة الصحراء. شيوخ القبائل لا ينطقون بكلمـة واحدة عبثـاً، ويروق لهم أن يستعملوا الإشارة في لغتهم.

جاء أحد رجاله بالأبلق المثخن بالجراح. كان ملوثاً بالدم والزبد والعرق والغبار.

صاح الشيخ الحكيم في رجاله:

ـ ما هذا يا ربّي؟ كيف لم تقولوا لي إن ضيفنا النبيل يملك مهرياً بهذا الكمال؟ مهري أبلق رشيق مثل الغزال. هذه سلالة انقرضت من الصحراء منذ مائة عام. فمن أين حصلت عليه بالله؟.

قال أوخيّد محاولاً أن يستر عريه:

ـ من زعيم آهجار. هدية منه عندما بلغت سن الرشد.

ـ آه. زعيم آهجار. إبراهيم بكدة. هذه فصيلة تليق ببطل مثله. لن يقدر

على تقديم هذه الهدية غيره. لدى القبائل العريقة دائماً مفاجآت وأسرار.

- . . .

ـ عندنا يقولون إن المهري مرآة الفارس. إذا أردت أن تنظر في الفارس وتقف على خفاياه، فتفقّد فرسه، مهريه. عليك بالمهري إذا أردت أن تعرف صاحبه. الآن أستطيع أن أقول إنك شاب لا ينقصك الكمال. من يملك مهرياً مثل هذا الأبلق لن يشكو من نقص القيم النبيلة. شرّفت ديارنا أيها الفتى النبيل سليل النبلاء. ولكن يؤسفني أن أقول إن فرصتك في تولي القبيلة بعد أبيك ضعيفة. لدى الشيخ أبناء أخت ثلاثة حسب علمي(*). ولكن من يدري. ربما حدثت معجزة. باب المعجزات دائماً مفتوح.

قام شاب عملاق، صارم الوجنتين، خشن اليدين، بتوزيع الدور الأول من الشاي الأخضر.

رشف الشيخ طربوش الرغوة. وضع الكوب على الأرض، وقال:

ـ ليسمح ضيفنا النبيل أن نكرم مهريه أيضاً. فطالما يتأفف الفارس من الدخول إلى بيوتنا من أبوابها فلا بأس أن يفعل المهري ذلك.

ابتسم، فابتسم أغلب الحاضرين. أوخيّد لم يفهم الرمز. لم يدرك تلميح الشيخ، فعاد العجوز الحكيم يعلن:

ـ إذا أفلت الفارس من حسان القبيلة، فلا يجب أن يفلت المهري النادر من نوق القبيلة. أنا أرى أن تستأثر نوقنا به. نريد نسلاً من السلالة المنقرضة. المهاري البلقاء في إبلنا عمل ستحسدنا عليه كل القبائل. إحياء السلالة البلقاء وحمايتها من الانقراض واجبنا. ما رأي ضيفنا؟

(*) لدى الشيخ أبناء أخت ثلاثة: يرجع الطوارق في النسب إلى الأم. فابن الأخت هو الذي يرث وليس الابن. وهي تأثيرات المجتمعات الأمومية.

لم ينتظر رأي ضيفه. أمر بتمكين المهري من النوق، فشاهد أوخيّد في ذلك اليوم لأول مرة كيف يلقّح الذكر أنثى البعير.

جاؤوا بالناقة الناصعة وأناخوها في العراء. عقلوا قوائمها الأمامية والخلفية. ثم قادوا إليها الأبلق الهائج وتكأكأوا حولهما. برك فوقها حتى خيّل لـ «أوخيّد» أن ضلوع الناقة المسكينة قد تكسرت. ترغي وتستغيث وتتقيأ كتل الزبد المنفوش. أعاق الذيل المهمة، فأمسك أحدهم به، ورفعه إلى أعلى. تصدّعت البيوت بالعويل، فخرج الأطفال والنساء للفرجة. اصطفوا في طوابير كثيفة أمام البيوت. بين الحين والآخر يضحك العجوز ويلوّح بعكاز السدر في الهواء ويردد: «إذا أفلت الفارس فلا يجب أن يفلت الأبلق».

كانت تلك عملية فظيعة. كلما تذكرها أوخيّد أحس بالغثيان والخجل.

- ٤ -

واصل مغامراته مع النوق السارحة في مراعي الصحراء، فكلّفته الفحولة العمياء داء الجرب. عاد من إحدى الغزوات كئيباً. انطفأ بريق المرح في عينيه الكبيرتين ودلى شفته السفلى أكثر. وقف في العراء هادئاً، صامتاً، يشيّع الأفق المتراقص في ألسنة السراب السماوية، بنظرة حزينة.

كان خجولاً.

لاحظ أوخيّد كآبته، ولكنه لم يكتشف السرّ إلاّ بعد أيّام. تفحص وبره البهي وهو ينزع شوك السدر من جلده المبقّع ويتفقده من القراد. في الجلدة، تحت الوبر، تمكّن المرض وسكن الالتهاب. حكّه بأصابعه، فتوجع المهري، وصاح من الألم. جاء بالمقص، واختار موقعاً حلق منه الوبر الكثيف. تعرّى الموقع عن المرض اللئيم. اسودّت الجلدة، وأكلت لحم الحيوان.

بعد أيام لاحظ أن الجرب ازداد توسعاً والتهم مواقع جديدة من جسد الأبلق. ذهب إلى حكماء القبيلة طلباً للمشورة. أجمعوا على أن الأمل ضعيف في الشفاء. إذا تمكّن الجرب من البعير فلا أمل. لم يفقد الأمل. لم يتصور أن توجد قوّة تخطف منه أبلقه. الخبير بداء الحيوان الأعمى هزّ رأسه، وأجابه على استنكاره: «ايبه يا ولدي. بعد الضحك يأتي البكاء.

الفرح يعقبه الحزن، والموت يأتي في غفلة الحياة».

لم يقتنع.

لم يخلق الأبلق للموت. تذكّر كيف رعاه وربّاه عندما تلقاه من الزعيم المهيب وهو لا يزال مهراً. كان يسرق الشعير من الخباء ويطرحه في راحتي يديه ويقدمه له. مع تكرار الفعلة افتُضح أمره وشكته الخادم الزنجية إلى أمّه قبل أن تموت. الأم أخبرت الأب، فوبّخه قائلاً: «حتى الناس محرومة من الشعير وأنت تعطيه للدابّة». أجاب أباه يومها: «الأبلق.. ليس دابة. الأبلق هو الأبلق». ضحك الأب الذي لا يبتسم إلاّ نادراً، وهدّده بسبابته ربما إعجاباً بجوابه.

أكثر ما يثير سخرية الأهالي في النجع أن المهري الصغير يتجوّل معه بين المضارب ويقتفي أثره كالكلب. يهرول وراءه حتى عندما يذهب للسهر في ليالي السمر في العراء ولا ينام إلاّ عندما يهجع هو للنوم. يرافقه حتى عندما يسرح في الخلاء كي يقضي حاجته. وهذا أكثر ما أضحك عليه أقرانه، ولكنه لم يهتم. يستسلم لتمسّحات الجمل ومداعباته ويجيب أقرانه الحمقى: «الشيخ موسى يقول: الحيوان خير صديق. الحيوان أفضل من الإنسان. سمعته يقول ذلك». الشيخ موسى يقرأ الكتب ويتلو القرآن ويؤم الناس في الصلاة. وهو مقطوع. لا زوجة ولا أولاد ولا أقارب. يعيش متنقلاً مع القبيلة برغم أنه ليس من القبيلة. ويقال إنه جاء من غرب الصحراء.. من «فاس» بلاد الفقهاء وعلماء الشريعة. الشيخ موسى هو الذي تمتم له بالسرّ وخلّص أبلقه. قال له: «الكلام بيننا ولكن شفاء جملك في آسيار(*). لا تضحك عليّ واسمع كلامي. إذهب إلى قرعات ميمون

(*) آسيار: يعتقد أنه بقايا السلفيوم. وهو نبات أسطوري يعطي طاقة هائلة. انقرض من ليبيا في القرن الثالث قبل الميلاد. ويجمع المؤرخون القدماء أنه كان دواء سحرياً لكل الأمراض المعروفة في العالم القديم. وكان ملوك ليبيا القدماء يصدرونه إلى مصر وما وراء البحار. ويعتقد الكثيرون أن فيه يكمن سرّ التحنيط إذ استخدمه الفراعنة لهذا الغرض.

في الربيع القادم: آسيار لا ينبت إلاّ في تلك السهول. أوثق المهري جيّداً حتى لا يفرّ واتركه يرتع يوماً أو يومين وسوف ترى»، ثم كرر له بلغة غامضة: «لا تنس أن تعقله جيّداً». نعم. آسيار في القبيلة مرادف للجنّ والجنون. من ذاقه جنّ سواء أكان ذلك حيواناً أم إنساناً. وخشية الأهالي من هذا النبات الخرافي متوارثة. وأول ما يعقل الولد الحياة الدنيا وتسلّم له أمر الجديان يقولون له: «إياك أن ترعى الجديان في قرعات ميمون. هناك آسيار. في العشبة ألف دواء. ولكنها تمرّ كلها من باب الجنّ. الجنّ هو الذي يملك المفتاح إلى الشفاء من الألف داء. إذا استولى عليك شفاك من أي مرض. ولكن ما فائدة أن تشفى من الداء إذا كنت ستفقد عقلك؟ من فقد عقله فقد نفسه. إيّاك من آسيار في قرعات ميمون!».

قرأت أمّه على رأسه هذه التعويذة أيضاً عندما وعى الدنيا وتهيأ للانطلاق كي يرعى الجديان في الوديان.

سرّ الشيخ موسى أرعبه. هل سيجنّ الأبلق؟ هل سيفقد عقله؟ كيف يفقد الحيوان عقله؟ هل تجحظ حدقتاه وتحمر مقلتاه ويعلو الزبد شفتيه ويحطم رأسه على الأحجار كما يفعل الرجال المقيدون بالوجد في حفلات السمر الليلية، أو الدراويش من أتباع الطرق الصوفية الذين يطوفون على النجوع ويهيمون في البرية، يضربون الدفوف ويجذبون طوال الليالي؟

لا. لا. هذا مصير أتعس من الجرب. طاف به النجوع بحثاً عن الخبراء العليمين بداء الحيوان، لم يطق أن يرى صديقه يعاني من الاضطهاد على أيدي الرعاة الأشقياء. عزلوه عن قطعان الإبل خشية العدوى، وتركوه يرتع وحيداً في المراعي، فآثر أن يرافقه بنفسه في محنته. يذهب معه إلى المراعي منذ الفجر ولا يعود إلا في الليل. يقسو عليه أحياناً فيوبخه قائلاً: «هذه نتيجة طيشك. ماذا كسبت الآن من مغامراتك؟ ألم تسمع كلام الشيخ موسى؟ الأنثى أكبر مصيدة للذكر. سيدنا آدم أغوته امرأته فلعنه الله وطرده

من الجنّة. ولولا تلك المرأة الجهنميّة لمكثنا هناك ننعم بالنعيم ونسرح في الفردوس. في الحفر دائماً تختبىء الأفاعي والعقارب، تلدغ كل مستهتر يحشو عضواً من أعضائه هناك. فماذا فعلت بك ناقتك الناعمة؟ هي أيضاً أفعى. ناعمة ولكنها تلدغ. العدوى هي الثمن، فتحمّل الآن واصبر». يسبل الحيوان جفنيه خجلاً ويجيبه في ندم: «أو ـ و ـ ع ـ ع ـ ع». يبتسم أوخيّد بمرارة ويواصل: «آه. الندم، الندم لا يفيد. ماذا سنفعل بداء كالجرب؟ ألا تفهم أنه أخطر من الوباء. أخطر من الجدري ومن الطاعون؟ إنه. إنه. . اللّهمَّ احفظنا. أنت لا تفهم أن الحياة كلها مصائد. إذا لم تنتبه لمواقع رجلك وقعت في الفخ. يا لطيف! ولكن معك حق. أنا أيضاً ساهمت في غفلتك لأني شاركت في تربيتك. أمّك لم تنعم برؤياك جملاً عندما جاءني بك الزعيم الجليل. ولكن قل لي بالله: كيف أنير عقلك إذا كنت أنا نفسي مثلك أحتاج إلى من يعينني على تنوير عقلي؟ الغشاوة قدرنا، والمصائد هي التي تعلّم الحيلة. آه. الغفلة. الغفلة». اقترب المهري الحزين وتمسّح بذراعه. تألم أوخيّد مغيراً لهجته: «لا يهم. لا يهم. لا تكترث. يعيرك الحمقى بالجرب. لا تعرهم اهتماماً. سنجد حيلة. لا بد أن نجد حيلة. اصبر فقط. لا بد أن تصبر كثيراً إذا أردت أن نخرج من الورطة. الحياة هي الصبر كما تقول العجائز».

أخذ رأسه في حضنه، ووقف طويلاً في المرعى يعزيه.

«الصّدّيق يراعي نفس بهيمته. أمّا مراحم الأشرار فقاسية».

العهد القديم
سفر الأمثال
الإصحاح الثاني عشر

- ٥ -

في تجواله بين النجوع حصل على زيت غريان من رعاة قبائل أولاد بوسيف. جزّ الوبر ومسّد الجلد المسودّ بالزيت ثلاث مرات في اليوم. لانت الجلدة بعد أيام ولكن السواد ظلّ يأكل الجسم وينتشر إلى أسفل ليطوّق البطن ويلتهم القوائم. خبير آخر عليم بداء البعير جاء من «آير»(*) برفقة قافلة تجار أعطاه مرهماً معتماً في قنينة صغيرة وقال إنه استحضره من الأعشاب. استعمل الدواء حتى نفد. بعد أسابيع تساقطت الجلدة السوداء فنزّ الدم ولم يلتئم الجرح. ما عاد يطيق أن يرى خيوط الدم وهي تقطر من جسم الأبلق. في عيون الناس رأى الشفقة والتعاطف.. تعاطف معه لا مع الحيوان المصاب.

الأبلق الآن ليس أبلقَ. اختفت البقع البديعة من الجسد الرمادي. اختفت النظرة الذكية من العينين الساحرتين. القوام الرشيق الممشوق تحوّل إلى هيكل أسود مترهل مبقع بالظلمة. خيال شاحب وبائس لكائن آخر. سبحان الله كيف يصنع المرض من المخلوقات كائنات أخرى مختلفة. المرض يصنع ذلك مع الناس أيضاً. المرض الطويل يفعل ذلك.

في هذه المرحلة لم يعد الأبلق يقترب منه في النهار. يقضي اليوم مهموماً، يتابع انسياب الملائكة في سراب الأفق. أصبح يخجل من

(*) آير: الصحراء الواقعة بين مالي والنيجر ونيجيريا.

مداعباته أمام الناس. وحتى إذا أقبل إليه ليمسّده بقطرات الدواء يتملص ويحـاول أن يفلت. وفي بعض الأحيان يشتكي في بؤس: «أوو ـ ع ـ ع ـ ع . . . ».

في تلك الأثناء يتسلل إليه مع الظلمـات بعد أن يكـون كل شيء في الصحراء قد همد ومات. لا يبقى في عمق الليل إلا الجنّ، يسعون في العراء ويهمهمون بالمحاورات الخفية. يزحف المهـري المسكين ويدس رأسه في لحاف صديقه النائم. . . صديقه الذي يعاني الأرق ويحاول أن يختـطف إغفاءة قبـل أن يضرب الفجـر الأفق بالنـور. يتمسّـح بـالغـطاء ويتحسس بشفتيه المتدليتين الأجزاء المكشوفة من جسمه ثم يدس رأسه المستطيل داخـل اللحاف مصـدراً أنيناً مـوجعاً. يحيـطه أوخيّد بـذراعيه ويبكيان معاً، كلّ منهما يمسح دموع الآخـر بلسانـه، يتذوّق طعم الملح والألم. عندما تنزل ظلمات الموت لا يملك المخلوق إلا أن يبكي ويلعق الدمع والألم. يخرج أوخيّد رأسه ويرفع بصره إلى القمر الخجول الشاحب ويشكو: «لماذا يخلق الله الخلق إذا كان الموت بالمرصاد؟ لماذا يتعذّب المخلوق قبل أن يموت؟». ثمَّ يعضّ شفته ويردد: «لعن الله الأنثى! لعن الله الأنثى!».

وفي يوم ملّ الشكوى.

قـال لصديقـه في الليل، تحت الغـطاء، حتى لا يسمعهمـا مخلوق: «خلاص. يكفي. شبعنا من العذاب. يجب أن نفعل شيئاً حتى لو كـان جنوناً. سنجرّب حيلة الشيخ الحكيم. علماء الشريعة القادمون من فاس حكماء. الصحراء كلها تعرف ذلك. حتى لو كان ثمن ذلك هـو الجنون فماذا يضرّ المخلوق أن يكون مجنوناً؟ ثم ألا ترى أننا سنجنّ ذقنا آسيار أو لم نذقه. أنا وأنت في طريق الجنون. لا أريد أن أرى جسدك يتساقط قطعة قطعة. سأجنّ قبل أن تموت. نعم. أنت ستموت وأنا سأجنّ. هل رأيت

ماذا يمكن أن تكلف حماقة صغيرة في ساعة صغيرة؟» .

سافر إلى الحمادة الغربية. توجه إلى النصب الوثني القديم القائم بين الجبلين. ولم يكن يعلم أنه لو تأخر في سفره أياماً أخرى لنجح الوالد في قتل الحيوان المريض.

الأب كان يخطط لإنهاء الألم بإطلاقه رصاصة على رأس المهري الأجرب.

- ٦ -

في مـدخـل الجبلين المتقـابلين، في خـلاء لا ينتهي، وقف نصب المجوس في صدر ربوة وحيدة. في الزمان القديم لم يظنوا أنه صنم. كان الضريح مزاراً للجميع.. حتى الفقهاء وعلماء الدين. أجمع الجميع أنه ولي شهد بداية الفتوحات. بل قالوا إنه أحد الصحـابة مـات عطشـاً في الصحراء وهو يجاهد في سبيل الله. فقصده الرحل في الصحراء، يأتون خلسة أو يجيئونه زمراً. ينحرون له القرابين ويسفحون دم النذور. حتى جاء العرّاف الوثني من «كانو». زنجي عجوز يزين رقبته المجعدة بالغضون، بعقد من أصداف النهر. يضع على رأسه عمامة سوداء. جبّته الفضفاضة أيضاً سوداء. يقال إنه مثل الغراب. يتنقل وحيداً على ناقة عجفاء ويكره المخالطة. يمضغ التبغ ويبصق اللعـاب في وجوه الأطفـال والفضوليين. العرّاف المخيف أول من حطم الأسطورة وقرأ الرموز المحفورة على قاعدة الصنم. قال إنه اللقب لإله صحراوي قديم. وتوصّل إلى فكّ الشيفرة في أبجدية التيفيناغ، ولكنه رفض أن يبوح بالسرّ المحفور عند قدمي الإله. وبعد شهور وجدوه ميتاً في السهـل المجاور دون أن يتمكّن الأهـالي من حمله على إفشاء سرّ التميمة الوثنية قبل وفاته المفاجئة.

قاعدته صخرية مثلثة الزوايا. في نهاية المثلث تُجسّم صورة الإله مباشرة بصخرة كبيرة. فوق الصدر، ارتفع الرأس، فتمّ الاستغناء عن الرقبة أيضاً.

ملامحه خفية تنطق بعبادات آلاف السنين. الأحجار التي تعوّدت أن تتلقى التوسلات أمداً طويلاً تكتسب هذه الملامح فقط. خليط من اللين والقساوة، الرحمة والانتقام، الحكمة والكبرياء، و. . الصبر. . صبر الخالدين الذين أَلِفوا غدر الزمان ووحشة الوجود. العين اليمنى أكلتها رياح القبلي المحملة بالحصى والغبار. رياح آلاف السنين، أكلت العين وجزءاً من الوجه. أما الناحية اليسرى فما زالت تنطق بتاريخ الصحراء الحزين، تتجه صوب الجبل الشمالي، تنظر إلى أعلى، نحو القمة الملفوفة بعمامة خفيفة زرقاء. حول الوثن انتشرت بقايا عظام قديمة. تفتت بعضها وظلّت أطراف أخرى سالمة. . أطراف النذور القديمة.

أناخ أوخيّد أبلقه الأسود، ووقف طويلاً، يحاول أن يقرأ أسرار الصحراء في هيئة الصنم الخفي. أخيراً ركع ورفع يديه وصاح: «يا وليّ الصحراء. إله الأولين. أنذر لك جملاً سميناً، سليم الجسم والعقل. اشفِ أبلقي من المرض الخبيث واحمه من جنون آسيار. أنت السميع. أنت العليم». ثم عفّر جسم المهري المتآكل بتراب الضريح، وتوسده ونام حتى توهجت الصحراء ببهاء الفجر. صنع كوباً واحداً من الشاي الأخضر، وواصل رحلته إلى القرعات الغربية.

في الليل، عندما توسد الخجر ونعس، رأى الأبلق يغرق في الوادي، جرفه السيل المباغت وابتلعه. تشبث باللجام ونازع الماء البارد. السيل ينتزعه وهو ينتزع المهري من الجهة الأخرى. سقط مرات على ركبتيه الأماميتين وغرق في الماء العاتي حتى اختفى رأسه. قاوم. وشدّ هو الرسن من الناحية المقابلة. لاحظ تفصّد الدم من خياشيم الحيوان المناضل، وخشي أن تتمزق الشفة الملجومة. استمرّ الصراع طويلاً. . طويلاً جداً. حتى خفّ الهدير ونزل مستوى الماء المعتم في الوادي الهائج. ثم رأى لدهشته أن الماء الداكن يتحوّل إلى رجال شياطين يشدّون مهريه من ذيله

إلى أسفل عازمين أن يرموا به في هاوية ظلماء. أفاق من نومه ورأى الوهج الأول يشقّ ظلمات الفجر.

فكر طويلاً في هذه الإشارة. أحلام الأضرحة تستدعي خبرة العرافين في التفسير. الشيخ موسى فهيم في رؤى المقابر الإسلامية. أمّا عرافو «كانو» فوحدهم يتخصصون في قراءة الرؤى التي توحي بها الأضرحة القديمة.. الأضرحة الوثنية. عرافو «كانو» يرافقون قوافل التجار في الصحراء، فأين يستطيع أن يرابط للقوافل؟ لا ينبغي الاستهانة بوحي القبور. والمكابدة في البحث عن العلماء والعارفين واجب في شريعة المسلمين، مثل الجهاد في سبيل الله. هكذا يروي الشيوخ. ولكن أين يمكنه أن يجد عالماً في الأضرحة عبر هذا الخلاء؟ أين يقابل عارفاً بإشارات الأصنام؟

جدّه لأمه شيخ حكيم. إذا رأى رؤيا في نومه لا يغادر فراشه حتى يأتوا له بالعرافين ويفسروا له الرؤيا. ويتردد في القبيلة من يحلو له أن يقول: «إذا حذرك الله وكشف لك السرّ فعليك أن تتمهّل وتتعظ وإلا فلا تلومن إلا نفسك». وقد أمن غدر الخائنين: الزمان والإنسان، فلم يباغته حدث ولم يغافله عدوّ. ويجمع الجميع أن كل حكمته كانت تنبع من عنايته بالإشارات الخفية. ويقال إن الموت أيضاً لم يفاجئه. رأى في منامه أنه يقف تحت السدرة الأسطورية(*) الضائعة في غرب الصحراء ويشرب من ماء البحيرة. فقال له العرّاف في الصباح: «أعدّ نفسك للرحلة. إنها سدرة المنتهى»(**). فحضّر كفنه، وغسل جسده وارتدى أفخر لباسه، وانتظر

(*) السدرة الأسطورية الضائعة: أسطورة للطوارق تتحدث عن سدرة في مكان ما من الصحراء، تحتها نبع، من وجدها وشرب من النبع عاش خالداً أبد الدهر.

(**) سدرة المنتهى: وردت في القرآن في سورة النجم: «ما كذّب الفؤاد ما رأى. أفتمارونه على ما يُرى. ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدوة المنتهى». الآيات من ١١ إلى ١٤. وقد =

ملك الموت. وظلّ يفعل ذلك كل يوم حتى لفظ أنفاسه بعد أسبوع من تاريخ الرؤيا.

أولاها محي الدين ابن عربي اهتماماً كبيراً سواء في «الفتوحات المكية» أو «كتاب المعراج». يقول في «سدرة المنتهى» في «الفتوحات..»: «قلت حسبي حسبي.. قد ملأ أركاني، فما وسعني مكاني، وأزال عنّي به امكاني. فحصّلت في هذه الأسرار معاني الأسماء كلها، فرأيتها ترجع إلى مسمّى واحد وعين واحدة، فكان ذلك المسمّى مشهودي، وتلك العين وجودي، فما كانت رحلتي إلاّ فيّ، ودلالتي إلاّ عليّ».

- ٧ -

فـوق «قرعـات ميمون» تـدلّت سحب بنفسجيّة كثيفـة وتلاحمت على رؤوس الجبّال المتباعدة في الخلاء الأبدي الممتد. كل جبل يقوم وحيداً في العراء، ويصطف في الطابور الذي يخرق الصحراء إلى شطرين. في المسافات الفاصلة بين الجبال المعزولة في بحر الأرض الطينية الحمراء، انتشرت دوائر العشب وفاحت الزهور البرية. نهاية الربيع. ولكن الشمس لم تتجبّر بعد. جنى بضع قطع من الترفاس(*)، وقتل ثعباناً بشعاً بالهراوة، ثم جدّ في البحث عن العشبة الموعودة.

مع الأصيل عثر على حقل كامل. ارتفعت النبتة الخرافية مسافة ذراع عن الأرض. أوراقهـا خضراء داكنـة، تدلّت فـروعهـا، عـادت إلى الأرض، وتخلّت عن الساق الرقيقة الساحرة. في قمة الساق تكشّفت زهرة صفراء، وفاحت بشذى غامض. زهرة الجن!.

جرّ الجمل إلى الحقل مغالباً القشعريرة والخوف. . خوف دسّه في رأسه ميراث الأجيال من الأساطير والإرهاب. قيّد قائمتيه الأماميتين بعقال الليف المتين. شدّ اللجام إلى الذيل، وحرص أن يترك الحبل مرتخياً حتى يعطي للرقبة حرية الحركة في أثناء الرعي. وقف متفكراً، محاولاً أن يتذكّر حيل

(*) الترفاس: هو الكمأ ينمو أساساً في الحمادة الحمراء. وهو ثلاثة أنـواع: الأبيض والأسود والأحمر، حسب التربة.

الجنّ. خاطب نفسه: «العجائز تؤكد أن الجنّ ليس كالإنس. لا خبث ولا حيل للجن. الأختلاف في النبل. الجنّ أنبل من الإنس في المبارزة. إذا أسأت له أساء لك وإذا أحسنت له أحسن لك. الجنّ لا يعرف الخيانة. الجنّ يلتزم بقوانين اللعبة. المهم أن تعرف ما أنت مقدم عليه».

بدأ الحيوان الجائع يلتهم نبتة الجن، يملأ فمه، ويرفع رأسه نحو الأفق، ويلوك طويلاً قبل أن يبتلع اللقمة.

وقف يراقبه حتى المساء. أوقد النار، وشوى الترفاس فوق الجمر. لم يغفل عن ملاحظة الأبلق ولم ير بوادر الجنون. شبع وبرك في الحقل الأخضر، وانهمك يجترّ العشب المحرّم. خيل إلى «أوخيّد» أن البريق عاد إلى عينيه. الحياة عادت إلى المقلتين الميتتين. لم يتبيّن الحدقتين تماماً بسبب العتمة، ولكن الوميض الطيّب، الذ ادىء، برق في ضوء النار مراراً.

تكاثفت الظلمات. عمّ السكون.. سكون لا يخدشه إلاّ اجترار الأبلق وهو يمضغ العشبة المسحورة. توسد ذراعه وهجع.

قضى الليل في إغفاءات متقطعة. انتظار المفاجأة منعه من النوم.

في الصباح تفقّد صاحبه. يقظ ونشط. يدير رأسه يميناً ويساراً في التفاتات عصبية. إذن بريق البارحة لم يكن وهماً. البريق عاد إلى العينين المصقولتين حقاً.

الحزن اختفى من الحدقتين السوداوين. الحمد لله. أهي بادرة للشفاء أم علامة على اقتراب الجنون؟ أين الجنون؟ الشفاء مرتبط بالجنون. إذا لم يصب الحيوان بالخبل لن يطمع في شفاء. إذا لم يذهب العقل لن ترى العافية. سبحان الله. ولكن لن ييأس. المعجزات تتحقق كثيراً في الصحراء. وهو لا يطلب معجزة كبيرة. لا يطلب سوى أن يذهب الجنّ

بالأذى ويتركوا له صديقه. لم يتوقف عن الابتهال والتوسل والصلوات. ضريح الولي القديم لن يخذله. لن يفقد الأمل. ولكن أين سحرك يا آسيار؟ أين لوثتك؟ أين فعلك؟ هل البريق إشارة؟ آه. الإشارات. يجب الانتباه للإشارة. كما في الحلم. كما في الرؤى الخفية. الإشارات لغة الله. مهملها سوف يلعن في الدنيا. من أهملها نال القصاص. يا ساتر. يا ساتر.

كان البريق إشارة خفية حقاً، ففي اليوم التالي بدأت المعركة، بدأت مع الأصيل. وقف المهري مستنفراً. يحرك ذيله المشدود كأنه يطارد ذبابة وهمية. ثم تبعته حركةِ الأذنين، ثم الجلد المسودّ. الجلدة السوداء أيضاً انتفضت وارتعدت. حاول أن يفك القوائم الأمامية. في العينين، تحوّل الألق إلى قلق. تأهب أوخيّد، ولكنه لم يعرف ماذا يفعل، فتابع حركات الأبلق في قلق أيضاً. ثم بدأ يلوك الهواء ويتقيأ زبداً ناصعاً. تصاعدت الرغوة حول شفتيه ثم بدأت تتساقط على الأرض في قطع كبيرة منفوشة. من الجسد الملتهب تفصّد العرق. لم ير عرقاً حارّاً وغزيراً على جلد الإبل كما رآه يومها. بدأ ينتفض ويحاول أن يحرر قوائمه من القيود. ثم.. . رغى. رغى بصوت فجيع.. أليم. أحس أوخيّد بالوخزة في قلبه. صاح بلا وعي وهو يسارع ويمسّد على جسده:

- اصبر. اصبر. الحياة هي الصبر. ألم نتفق؟ لو صبرت نلت الشفاء. أعرف أن الجنّ قوي ولكن الصبر أقوى من الجنّ.

ولكن المهري لم يصبر. اشتكى بصوت عال، طويل، أليم: - آ - آ - آ - آ...

تردد الصدى في القمم المعزولة في الفلاة الأبدية، وغابت الإبرة في قلب أوخيّد. دار يميناً ويساراً. داعب رقبة الجمل. ازداد تدفق العرق. الزبد بدأ يتفصد من الجلد بدل العرق. رغوة ناصعة كثيفة تغمر الجلد الأسود. انهار على ركبتيه الأماميتين ثم عاد وانتصب بحدّة. الألم في جوفه

لا يطاق. الألم جعله لا يجد راحة في وضع ولا مكاناً على أرض. انتزع رأسه وانتفض، فتفصّد الدم في خياشيمه حيث خرم اللجام.

همهم أوخيّد:

ـ أوه. لا تحاول أن تفعل ذلك مرة أخرى. ستمزّق شفتيك. ستهلك نفسك. اصبر. الصبر. الصبر. الفرسان يدوسون الجمر ويسكتون. يدخلون النار ولا يشكون. اصبر على النار في جوفك ليلة.. ليلتين تكسب العافية إلى الأبد. هل اتفقنا؟

المهري لا يصغي إلى التوسلات. «اللّي رجله في النار لا يسمع»... آه من النار.

• قفز البدوي إلى العراء وخاطب الله:

ـ خفف يا ربي. خفف. يا ربي قَوِّه على الجن.

ثم عاد ومسح الزبد عن الأبلق، وخاطبه:

ـ ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟ آه لو أستطيع أن أشاركك. آه لو أستطيع. ولكن الله خلقنا هكذا. عجزة. لا أحد يتألم نيابة عن أحد.

ثم أسرع جانباً، وخاطب الله مرة أخرى:

ـ يا ربي أعطني قليلاً من ألمه. يا رب قاسمني ألمه. اجعلني أساهم في التخفيف عن الأبلق. هو تألم كثيراً. شهور وهو يتألم. ليس عدلاً أن يتعذب وحده طوال هذا الزمان. هو أخرس. لا يشكو. ولكنه يفهم. يتألم. ألمه فظيع. وإلا لما صرخ. النبيل لا يصرخ إلّا إذا تجاوز الألم حدّه. أزح عنه جزءاً من العبء وضعه فوق رأسي. حملني أعواماً فلماذا لا أحمله ساعات؟ لماذا لا أتحمّل عناءه بضعة أيام؟

في الزبد الناصع، نزف العرق ممزوجاً بدم.. بقيح. عرق أسود. ماء

أسود. السيل الأسود. سيل الرؤيا. هل هذه هي الرؤيا؟

استمرّ الحيوان يحاول الإفلات. العقال حفر جرحاً عميقاً في القائمتين الأماميتين. الدم ينزف من القوائم. فوق الخف. فكّ العقال الأمامي. انقطع حبل الليف. قفز أوخيّد، وأمسك باللجام. فتح الحيوان فكيه حتى نهايتهما. تدفق الزبد واللعاب والقيء الأسود. آه. القيء الأسود. عين الحسد. يجمع العرافون على ذلك. لقد حسدوه على الأبلق. كل ما حدث بسبب الحسد. الحسد أقوى من السم في تعاليم العرافين. عين الحسود أفتك من السهم المسموم، ومن ضربة السيف أو المدية. أفتك من كل الأسلحة. متى حسده الأوغاد؟

شق المهري سكون الخلاء:

ـ آ ـ آ ـ آ ـ آ. . .

اندفعت الصرخة عبر المدى اللانهائي. رددتها الصحراء طويلاً قبل أن يبتلعها السكون الجليل.

تقافز أوخيّد هنا وهناك. قال دون وعي:

ـ خلاص. ركبه الجنّ. اصبر على الجنّ تقهرهم. الصبر. الصبر. الصبر هو الحياة.

استمر يمسك اللجام. خاطب الله مرة أخرى:

ـ يا ربي هل سيموت؟ ماذا أفعل وحدي إذا ذهب؟ يا ربي. أعطيتني صديقاً أخلص من كل الأصدقاء وتأخذه منّي هكذا بين يوم وليلة وتتركني وحيداً؟ ماذا سأفعل في النجع الموحش مع هؤلاء الوحوش بدون الأبلق؟ لا تأخذه مني يا رب. أنت لست قاسياً يا رب. أنت رحيم. أنت. . .

ثم انبثقت في مقلتيه دمعتان كبيرتان، حارتان. . حارتان مثل الجمر. أحس بالنار في عينيه، فقال عاجزاً:

ـ إذا كان ذلك ضرورياً فخذني معه. لا أريد أن أبقى. أنا يتيم. أنا وحيد.. أنت تعرف. خذني. خذنا معاً.

في تلك اللحظة، انتزع المهري رجليه من الأرض، وانطلق عبر الخلاء. تشبث أوخيّد باللجام، وجرى محاولاً أن يساير الأبلق ويعيده إلى الصواب.

بدأت الشمس تحتضر، توارت في غلالة بنفسجية لسحب شفافة، التفّت حول قمة الجبل المعزول عند الأفق، في أقصى الغرب.

انطلق الجمل تجاه القمة. عبر سهلاً كثيف الأعشاب، وصعد المرتفع، ثم هبط وادياً مزحوماً بالسدر. دخل في أدغال الشوك، ومزّق جسده، فنزّ المزيد من الدم. من أطراف أوخيّد أيضاً تفصّد الدم. تمزّق ثوبه عند الأكمام. شوك السدر اقتطع من القماش الفضفاض، فكشف ذراعه حتى الكتف الأيمن. سال الدم من الذراع والساعد.

توسل للحيوان المجنون:

ـ ماذا تفعل؟ توقف. الهرب لن يفيد. مما تهرب؟ هل تهرب من نفسك؟ هل تهرب من قدرك؟ الشجاع لا يهرب من نفسه. الحكيم لا يهرب من قدره. إذا هربت منه تمكّن منك أيها الأبله. إذا أدبرت اعتبر ذلك جبناً. سيلاحقك ويغلبك. الجنّ قدرك. ألم أقل لك أن الأمر لن يستقيم إلا بالصبر؟ ألم أخبرك أن الحياة هي الصبر؟ توقف حالاً. انتظر. لديّ سرّ آخر...

ولكن الحيوان لم يلتفت لتوسلات صديقه. في جوفه ألم أكبر من العقل ومن تحذيرات الأصدقاء. في جوفه نار موقدة. اللّي رجله في النار... اللّي جوفه في النار...

استمرت المطاردة. أوخيّد يلهث ويسفح العرق. من أطرافه يسيل الدم.

المهري يسفح العرق والزبد والصديد والدم. النار تغلي في جوفه، فيرداد جنوناً، ويطير في الهواء. أمام عينيه حجاب. طـار العقل وحـلّ العماء. سادت الظلمات، وفقد الإحساس بالزمن وبالأشياء. لا يدري ما إذا كان يجري أم يقف ساكناً في المرعى. لم يعد يحس بجسمه، بنفسه، بأطرافه. الألم أكل الأطراف، أكل الإحساس. الألم أكـل الألم. فمات الجسم، ومات الإحساس، ولم يبق إلا الجنـون في الرأس. قـطع وادي السدر، وصعد مرتفعاً آخر. وقـع أوخيّد على الأرض، فجـرجره المهـري بضعة أمتار. تمزقت الشفة العليا، وتحرر الجمل من اللجام. تدحرج أوخيّد عبر المنحدر ويده تمسك اللجام. سيطر على عجزه بمحاولة بطولية ونهض. إذا أفلت منه الآن وهو في قمة جنونه فلن يدركه إلى الأبد. سيفترقان إلى الأبد. هل كتب الله أن يودع صديقه القديم في هـذه السقطة؟ في هـذا المنحدر الشقي؟ هل حلّت لحـظة الوداع الأبـدي؟ قفز وركض صـاعداً المرتفع بيديه ورجليه معاً ممسكاً باللجام. تمزقت رئتاه، وانشلت أطرافه، وعلا الزبد شفتيه أيضاً. تناثر الزبد وهو يهبط المرتفع إلى الناحية الأخرى. آه. الهبوط فرصة. إذا لم يدركـه في هذا المنحـدر فسيفلت إلى الأبد. استجمع كل رجولته.. كل الشهامة.. كل النبل.. كل الأساطير المضادة للعار، واندفع عبر المنحدر. طار عبر المنحدر. سقط. نهض في لمحة بصر كأنه لم يسقط أبداً.. لم يسقط. وفي لحظة كوميض البرق وجد نفسه يمسك بالذيل. لم يصدّق. هل حدثت المعجزة؟ هـل أدركه حقّـاً؟ هل ساعدت الأساطير الموروثة المضادة للعار؟ هل انتصر على نفسـه؟ على عجزه؟ على ضعفه؟ إذن بالإمكان قهر الضعف الرهيب بـالصبر. الصبـر تعويذة ضد القدر. الصبر هو الحياة. هذا ليس وهماً. تأكد من ذلك منذ قليل. يا ربي هبني مزيداً من الصبر فيما تبقى من الرحلة.

تشبث بالذيل بيده اليمنى. وباليد اليسرى استمر يمسك باللجام. هدّه التعب فتباطأ بلا إرادة. انتزعه الجمل وجرّه في العراء. وجد أن الجرّ يتيح

له أن يلتقط نفساً فاستسلم. تعلق بالذيل فحرث الأرض الطينية برجليه. حرثها طويلاً. صعد الأبلق الوهاد، نزل الروابي، عبر السهـول، اخترق الأودية، أكلت الأحجار مداسه الجلدي، سلخت قدميه وسـاقيه، نهشت الأشجار البريّة فخذيه، مزّقت ثيابه. استرد وعيه، فحـرك رجليه دون أن يتخلّى عن الذيل. سحبه وراءه في خطوات شاسعة. جفّ حلقـه ويبس فمه. فشل في أن يستحلب اللعاب. العطش. العـطش. قدر الصحـراء الخالد. الصبر أيضاً إله العطش. الصبر تميمة خالدة أيضاً في الصحراء. يا رب هبني صبراً. إذا وهبك الله الصبر في الصحراء وهبك كل شيء. الآلام في يديه لا تطاق. ألم يطلب هو بنفسه الآلام؟ ألم يطلب تخفيف الوزر عن الأبلق؟ الألم لا يهمّ. المهم ألّا يفلت الأبلق. المهم شفاء الأبلق. المهم أن يقف على مفعول «آسيار» المسحور في النهاية. من يدري: ربما حدثت المعجزة وتعافى المسكين؟ ولكن يا ربي: هل من الضروري أن يمر الشفاء عبر الجحيم؟ هل يعدم الخلاص إلّا في أقصى الألم؟ هل ثمن الإثم فادح إلى هذا الحد؟ هل الأنثى بلوى إلى هذا الحد؟ هل عين الحسد شريرة وقاتلة؟

ذراعه الأيمن سينتزع من كتفه. ذراعه الأيسر أيضاً. إذا لم يفعل شيئاً فلن يستطيع الصمود. ستنسلخ اليد وتنفصل عن عظمة الكتف. ماذا يفعل؟ اكتشف أن طرف اللجام ما زال في يده اليسرى. بدأ يربط يده على الذيل بواسطة اللجام الذي كان مضفوراً من الجلد. اللجام لزج. تملّص أكثر من مرّة. لا. لا. أنصاف الحلول لا تجدي. لا بد من أن يحكم القيد. إذا لم يحكم الـرباط جيـداً أفلتت اليد وانـزلقت عن الذيـل. سيفلت الحيـوان ويذهب كل العمل هباء. استعان بأسنانه ويده اليمنى. شدّ اليسـرى إلى الذيل وأحكم حولها القيد. استجمع كل القوى الباقية كي يساير المهري في ركضه الخرافي. طمأن نفسه بمكافأة. قال لنفسه إنه سينال راحة بمجرد أن يحكم القيد. إذا كان القيد محكماً ضمن أن يلتقط نفساً. إذا نجح في

أن يربط اللجام جيداً نجح في أن يربط مصيره بمصير الأبلق إلى الأبد. لن يفلت. لن تختطفه منه الجنّ. سيقهر الشيطان نفسه. شعرة أخرى من الصبر. شعرة واحدة فقط.

نزل ستار العتمة.

ازدادت الصحراء وحشة وغموضاً وامتداداً.

زغردت الجنيّات في جبل الحساونة.

شحنته الزغاريد بالقوة. الزغاريد تشحن الفرسان حتى لو كانت هدية من حناجر الجنيّات.

أرخى يده اليمنى، وترك رجليه، فحرث الصحراء والظلمات.

- ٨ -

ظلّ يتقلّب طويلاً على الرمل من دون أن يعي أين هو ولا من هو. ويبدو أن شمس الأصيل هي التي أيقظته بأشعتها، فعادت إليه الحياة ولم يفق أو هو أفاق ولم يع. أو هو وعى ولم يعرف من ولا ماذا ولا أين ولا كيف. ظلّ منبطحاً على بطنه ولا يحس بشيء. أطرافه مشلولة أو مفصولة عن جسده. وعندما أدرك نفسه وأطرافه، شعر بالألم والصداع. الرأس يتحطم واليدان والرجلان تسلخ بالسكين. فتح عينيه. يده اليسرى معلقة في الذيل. الأبلق يبرك في الوادي هادئاً، ساكناً، محطماً أيضاً. بصق الدم ورأى جسمه. ما هذا يا ربي؟ لم تبق على جسده سوى الأسمال. تمزقت الثياب وأكلتها أشجار الطريق. هذا يقطع بأن الرحلة المجنونة مرّت عبر أودية عميقة كثيفة بالأشجار العالية. أعشاب السهول لن تطول قامته المعلقة في الذيل. جسمه كله موسوم بجروح عميقة. الدم يغطي الجسد والأطراف. حبيبات الرمل تيبّست على الجروح. النزيف توقف في الليل. فمه أيضاً مليء بحبيبات الرمل. بصق مراراً حتى تخلّص من التراب. حاول أن يتحرّك فعجز. فتح عينيه فبهرته شعاعات الأصيل. تفقّد الأبلق فلم يصدّق. الحيوان المسكين قطعة حمراء. أغمض عينيه مرة أخرى حتى يطرد الوهم. فتحهما فلم يتغيّر المشهد. قطعة حمراء. الدم لا ينزف. ولكن الجلد الأسود انسلخ وتقشّر. هل يعقل هذا؟ بذل جهداً عظيماً حتى حرّك أطرافه وزحف يميناً. استعان بأعراف رتمة ترتفع فوق ربوة رمل. اكتشف أن اليد

ما زالت مشدودة إلى الذيل وتعيقه عن الاستمرار في الزحف. فك اللجام بأسنانه. عاند القيد طويلاً. كان يلهث. يتوقف عن العمل. يلتقط أنفاسه ويعود إلى المجاهـدة. نجح. استلقى على ظهـره، ورفع عقيـرته بـأنين وآهات. الألم. . الألم لا يطاق. . يتصاعد ويشتد باستمرار. عاد يزحف. تفقده من ناحية اليمين أولاً. قطعة حمراء. الجلدة الجرباء سقـطت في الطريق. الأبلق تحرر من جلدته كما يتحرر منها الثعبان. المهري مسلوخ تماماً. لم ير قيحاً ولا صديداً. حتى الـدم جمد على الجلدة الحمـراء. حبيبات الرمل تشبثت بالبطن وأجزاء من الجنب الأيمن. الذباب اللحوح طنّ حول القطعة الحمراء ظنّاً منه أنها ذبيحة.

بـرغم الألم تفتقت نفسه بـالفرح. هـل سيشفى الأبلق؟ هـل تحققت معجزة آسيار؟ هل موسى وليّ حقاً؟ هل استجاب الضريح الوثني لتوسلاته ونذره؟

معجزة!

معجزة!

أحس بالعطش، فتذكّر الماء. نسي أنه في خلاء مقطوع بلا قطرة ماء. هول المعركة أنساه أخطر حجاب في الصحراء: الماء!

بدون الماء لن تتحقق أي معجزة في الصحراء. حتى إذا تحققت معجزة فإن انعدام الماء يمحوها ويحوّلها إلى وهم. كل الدنيا وهم بدون ماء. ما فائدة الشفاء بدون ماء؟ جاء الشفاء وغاب الماء. جاءت الحيـاة، فأقبـل الموت. بالأمس فقط أبدى الاستعداد لأن يضحّي بأي شيء في سبيل أن يتعافى الأبلق. واليوم عندما راوده الأمل في تحقيق المعجزة سحب منـه البساط ووجد نفسه في الخلاء المقطوع، بلا ماء. هكذا هي دائماً. النعيم مستحيل. إذا حضر الشيء غاب نقيضه. يحلو للشيخ موسى أن يقـول: الكمال لله. في الشباب يتفتح الطيش، ولا تحل الحكمة والمعرفة إلاّ في

العجز والشيخوخة. فما فائدة الحكمة بدون شباب؟ ما فائدة معرفة بدون حياة؟

هكذا هي دائماً.

البارحة، أثناء هروب الأبلق من قدره، في ذروة العدو المجنون، نعس.

نعس وهو معلّق في الذيل، تسلخ الأحجار رجليه، وتمزق الأشجار جلده. وبرغم كل شيء، برغم التعب والعطش والجراح، نام. لا يعرف كيف حدث ذلك ولا متى حدث ذلك. فقد الإحساس بالألم أولاً. ثم فقد الإحساس بالعطش أيضاً، فنام كأنه فقد الوعي. برغم أنه يعرف الآن أنه لم يفقد الوعي. لو حدّثوه بما حدث لما صدّق. لو لم يعش تفاصيل الحدث المدهش لما صدّق أبداً. ما أقوى الإنسان. الإنسان مخلوق خارق. لم يعرف ذلك من قبل. مخلوق صغير، عاجز، تافه، تقتله بعوضة أحياناً. وفي نفس الوقت لا يوجد شيء في الصحراء أقوى منه. قدرته على المقاومة تفوق طاقة الوحوش. فما سرّ هذا التناقض؟ هل هو تناقض أيضاً من النوع الذي يتحدث عنه مشايخ الطريقة أمثال موسى؟

عليه الآن أن يفكر في مقاومة أخطر عدوّ في الصحراء الكبرى: العطش.

هنا معيار القوة. هنا الاختبار.

انهار تحت الرتمة. حشا فمه بفروعها، وشرع يمضغها، ويمتص الرجيق. المرارة. ما أمرّ الرتم. استمرّ يلوك. غمره خدر. تبلّدت أحاسيسه، وانشلّت أطرافه مرة أخرى. تراجعت الآلام. آه. هذا مفعول الرتم، خدر الرتم. نهض بحرية. أحس بخفة وحيوية. لم يضيّع الوقت. هرع إلى المهري. احتضن رأسه بين ذراعيه لحظات. الرقبة المسلوخة ما زالت لزجة. مسكين الأبلق. لو رأته أنثاه بهذه الحال لأنكرته إلى الأبد. تفعل فعلتها ثم تنكر وتقول لا أنت منّي ولا أنا منك. كما يفعل الشيطان

الرجيم مع البشر تماماً. لعنهما الله معاً: الشيطان والانـاث. بل من هي الأنثى إن لم تكن شيطاناً رجيماً؟

آه من الداء يا أبلق. أرأيت ما يفعله الداء؟ يقلب هيئة المخلوق. ماذا سنفعل إذا تغيّر لونك ولم تعد أبلق؟ الشيخ موسى يقول إن الكمال لله. النعيم لا يتكامل. لا جنّة. لا فراديس على الأرض. الفردوس في الآخرة فقط.

هنا، على الأرض، تكسب الشفاء، وتفقد الجمال. تستعيد العافيـة، وينزع منك الكمال. الكمال للآلهة وحـدها. ربمـا هذا أفضـل. سنتقي الشر، ولن يجد الناس طريقاً للحسد. القبح حرز. في القبح أيضاً حكمة.

عانقه مرّة أخرى، وهمس في أذنه:

ـ قطعنا نصف الشوط. اصبر. الآن سنقطع الجزء الباقي.. الأصعب بـالنسبة إلي. أنـا لا أخزّن المـاء مثلك. سفحت كل مـائي في الطريق المجنون. الآن ستنقذني. سننطلق إلى أقرب بئر في الأودية السفلية. إيّاك أن تردني إلى الواحات. سأموت في بداية الطريق. ليس في جسمي قطرة ماء واحدة. أتفهم؟ لن يرضيك أن تفقد صديقك القديم. لن يرضيك أن تفقد أخاك الجديد. إذا اختلط الدم بالدم واتحد الجسد بالجسد ختم العهد بالأخوة الأبدية. هذا ما تقوله العجائز. والآن.. لن نضيّع الوقت.

تفقد اللجام. ترنّح وكاد يسقط على الأرض. تشبّث برقبة المهري. حفر تحت بطنه، ودسّ طرف اللجام في الرمل. انتقل إلى الناحيـة الأخرى، وسحب اللجام. جلس خلف السنام، وأحاط خاصرته باللجام الجلدي. لم يعجبه الوضع. فتمدد فـوق ظهر المهـري، والتصق بالجسـد المسلوخ. أحس بلزوجة الجلدة الحمراء. الدم لم يتيبّس بعد. جسده أيضاً عـارٍ. مزّقت أشجار الطريق ثيابه. شعر أن دمهمـا المتخثر اللزج يتمـازج الآن ويختلط. هـذا ما تسميـه العجائـز بالتـآخي. عهد الأخـوة. عهد الـوفاء

الأبدي. التحم الجسد بالجسد، واختلط الدم بالدم. في الماضي كانا صديقين فقط. أما اليوم فإنهما ارتبطا بوثاق أقوى. بالدم. أخوّة الدم أقوى من أخوة النسب. قد تلد الأم شقيقين دون أن يكونا أخوين. شقيقان في الرحم. ولكن طالما لم تمتزج دماؤهما فلن يكونا أخوين أبداً. الأخوة ليست سهلة.

أحكم الوثاق حول جسده، وثبته على ظهر المهري. لكزه برفق، فانتصب المهري. وقف لحظات ثم تحرّك. لم يعد على عقبيه. اتجه جنوباً، وقطع الوادي. صعد المرتفع، فتلقفه سهل لا نهاية له. غابت عيناه في الأفق الأبدي، ومشى بخطوات واثقة، واسعة، ثابتة. خطوات من يستعد لأن يقطع متاهة.

انتصف النهار.

في عيني أوخيّد طافت الأشباح. لم ں زمن طويل حتى غاب في الظلمات.

- ٩ -

في السقطة الأولى وجد نفسه في برزخ(*) بين الـوعي والغياب، بين الموت والحياة. هرع إلى أسنانه، واستعان بها. شدّ يده إلى الذيل دون أن يغـادر البرزخ. البـرزخ أوحى له بـأن يعود للحيلة الأولى. سقط ونهض مراراً. ترنّح، ولعق البول على فخذ المهري. ثم نزل الإلهام، وقيّد يده إلى الذيل.

خيّل إليه أن الجمل ينحدر من جبل عال، ثم تجاوز مقامه في البرزخ، وعبر إلى الظلمات مرّة أخرى.

غاب طويلاً، وعندما عاد من رحلته الوحشية، وجد نفسه فوق البئر في «آوال». تحسس الفوهة الحجرية بحثاً عن الدلو. لم يجد الدلو. حرر يده بأسنانه. المعصم مطوق بالدم. اللجام حفر جرحاً عميقاً. لم يحس بالألم، ولكنه أحس بلزوجة السائل. لعق يـده. لم يتذوق أي طعم. كـل شيء غائم. كل شيء يغرق في الغيم والعتمة. عيناه فقدتا التمييز من زمان. ربما بسبب طول البقاء في البرزخ، بين الدنيا والآخرة، بين الموت والحياة. الحياة. الحياة. الحياة هي التي تحرّك أعضاءه الميتة وتملي إرادتها التي لا

(*) البرزخ: مقام العبور إلى الجنّة أو إلى النار، وهو كحد فاصل بين نقيضين يحمل عناصر أو خاصيات كلا النقيضين.

تقهر. ما أقوى الحياة. ربط اللجام في قدمه، فوق الرسغ. أحكم الوثاق. وتفقد اللجام المربوط إلى الذيل أيضاً. ترنح وهو يحاول أن يهتدي إلى رقبة المهري، إلى رأسه. كان ينوي أن يبوح له بسرّ قبل أن يندفع إلى الهاوية. لم يفكر أنه لن يعود. فكّر في تلك اللحظة المدهشة أن الموت الذي يقول عنه الشيخ موسى إنه أقرب من حبل الوريد، هو أبعد من الصين. وكان ينوي أن يخبر الأبلق بذلك ويعطيه وصيته في أثناء غيابه في الهاوية. وفّر عليه الشقاء فهرع إليه بشفتيه. لعق الأبلق وجهه، ولكنه عجز أن يرى عينيه. عجز أن يفتح فمه بكلمة. فقد القدرة على النطق. بعد العماء جاء الخرس. رفع يده اليمنى، وربت على رأس المهري. تبادل البدوي مع أخيه كلمة السرّ بالأطراف. ترنح مرة أخرى، وبحث عن فوهة البئر. تخطى الفوهة، وتدلت رجله الطليقة من القيد في الهاوية. لم يفكر في الموت أبداً. فكر فقط فيما سيقوله للشيخ موسى: الموت أقرب من حبل الوريد حقّاً ولكن ما أصعب أن يموت الإنسان مع ذلك. الموت أبعد من الصين. شيء آخر. إذا وجدت البئر غاب الدلو. وإذا وجدت الدلو فلا تطمع في البئر. هكذا دائماً. ظل ممسكاً بحافة البئر.. بأحجار الفوهة. تزحزح نحو الهاوية. لم ير. لم يسمع. لم يحس. جاهد في أن ينزل الأحجار الأولى مستعيناً بيديه حتى لا تؤدي السقطة الحرّة إلى نزع الوثاق من الذيل. فعل ذلك آلياً دون عقل. قرر أن يفعل ذلك، ولكن القوى الخائرة، الأطراف التي حطمها الطريق والجراح، خانته فانهار في الهاوية.

في هذه اللحظة الصغيرة، الفاصلة بين الحجر الأعلى والماء الأسفل، مرّ دهر كالأبد.. دهر أبعد من الميلاد. بل رأى ميلاده في تلك اللحظة. رأى نفسه وهو يسقط من رحم أمّه إلى الهاوية. سمع عويل الجنيّات في جبل الحساونة، ورأى أطياف الحوريّات في الفردوس. تلقته إحداهن بغلالتها الشفافة وأودعته نهر الجنة. شرب من نهر الجنة، وشرق، وتقيأ.

لم يتقيأ داخل الماء. تقيأ خارج البئر. إذ تفتحت عيناه ورأى لأول مرة

بعد عماء طويل. رأى خيال الأبلق وشعاع الشمس المسلّط كمهماز من نار. لقد نفّذ الأبلق الوصية الصامتة وسحبه من اليم.

ثم.. عاد إلى البرزخ وتجاوزه إلى دنيا الظلمات من جديد.

- ١٠ -

ورد رعاة الإبل إلى البئر. وجدوا الجسد النحيل، الدامي، العريان ممدّداً أسفل الفوهة. قدمه مشدودة إلى ذيل مهري أصيل مسلوخ الجلد. يقف فوق رأس صاحبه ويحمي جسده من غطرسة الشمس. حملوه إلى ظل سدرة مجاورة متوجة بطربوش كثيف. حشوا رأسه في الدلو، ودلقوا عليه الماء. الراعي العجوز فقط هرع وأشعل النار. وضع القدر، وأسرع إلى أمتعته. جاء بحفنة من الحلبة، وطبخها في القدر. سقاه حساء الحلبة وهو غائب. سقاه بالملعقة مسنداً رأسه بيده كما تفعل الأمهات مع أطفالهن الرّضع في أثناء تغذيتهم بالحليب.

تكلّم بعد أيّام.

خاطب الراعي العجوز عن الأبلق:

ـ هل تعلم أنه أبلق؟ هل رأيت في الصحراء مهرياً أبلق؟ لا تلتفت إلى حالته الآن.. فهو مريض. داء عابر. لا بد أن يعود له لونه الأصلي.

تبادل الرعاة نظرات ذات معنى. أما الراعي العجوز فراقبه بفضول ثم ابتسم ابتسامة طيبة.. ابتسامة من خبر الحياة وجرّب الدنيا.

سأل أوخيّد فجأة:

ـ هل تظن أنه سيفقد لونه الأصلي؟

قال العجوز وهو يخلط الشاي بين وعائين:

ـ العلم عند ربّي. شيوخ الطريقة في غدامس يقولون إن كل شيء يعود إلى الأصل في النهاية. العشبة تنمو إلى رتمة والرتمة تزهر. والزهرة تتحوّل إلى ثمرة. والثمرة تعود بذرة وتسقط إلى الأرض. إذا كان اللون أبلق في الأصل فلا بد أن يعود مع الوقت إلى هيئته. اصبر ولا تخف.

ثم ابتسم مرة أخرى.

قال أوخيّد بخيبة:

ـ إذا لم يستعد لونه فلا معنى للشفاء. الشفاء كلّفنا كثيراً.

ـ وهل تريد أن تشتري العافية بغير شقاء؟

ـ لن تكون عافية إذا لم يعد الأبلق أبلق.

خشيته أن يفقد المهري لونه الأصلي، أفقدته طعم الشفاء وطعم النجاة من الموت. ألبسه الرعاة بالثياب، وزوّدوه باللثام والزّاد، ورافقوه حتى أطراف الحمادة. ودّعوه، وعادوا إلى أوديتهم السفليّة.

منعه الحياء أن يدخل بالأبلق إلى النجع وهو على هذه الحال. كتّفه بالعقال الذي زوّده به الرعاة، وتركه في المرعى الواقع شمال السهل حيث تتناثر البيوت.

من أمتعته كلها لم يبق سوى اللجام. كوّره في كتلة حول معصمه، وعزم أن يخفيه كتذكار لتلك الرحلة. هذا الخيط البديع، المضفور بعناية، الموسوم بالوشم والنقوش والمثلثات والمربعات التي بهتت وشحبت بسبب طول الاستعمال، هذا الخيط الجلدي كان صلته الوحيدة بالحياة. كان صلته التي أعادته من برزخه المشرف على الظلمات إلى الصحراء من جديد. الخيط الذي شدّه إلى الأبلق في الرحلة الوحشية الأولى فربط مصيره بمصيره وعاد وشده إليه مرة أخرى في الرحلة الثانية الممتدّة بين فوهة

البئر وسطح الماء. المساحة الفاصلة بين الحدّين. البرزخ الذي سمع فيه عويل جنّيات جبل الحساونة ورأى فيه حوريات الفردوس. اللحظة التي سقته من نهر الجنّة. اللحظة التي امتدت دهراً يعادل كل حياته في الصحراء. لحظة السقوط في الهاوية التي أضاءت روحه بوهج غامض لن ينطفىء. ولولا الخيط الواصل بين الحدّين لما كانت هذه اللحظة الخفيّة. الومضة الخفية التي عجز أن يذيع سرّها حتى لنفسه. ربما لم يعجز ولكنه هاب وخاف. هل هذا ما يراه السكارى بالوجد؟ هل هذا ما يسمّيه شيوخ التيجانية(*) «لقاء القدر»؟ لقد رآهم في واحة «آدرار» يجذبون بوحشية حتى إذا تمّ لأحدهم «اللقاء» استل السكين وغرسه في صدره حتى يقطع طريق العودة وينعم باللقاء الأبدي، فاتهمهم شيوخ القادرية(**) بالبدع وناصبوهم العداء. نشب العراك بين أتباع الطريقتين مراراً، وامتد هذا النزاع إلى الصحراء نفسها. نقله إلى المراعي أولئك الأفراد المتجولون أو المرافقون لقبائل الرّحل. فهل رأى القدر الجليل في ومضة تلك الغمضة؟

الشيخ موسى من أتباع القادرية.

زاره في الخيمة التي نصبها أبوه خصيصاً لاستقبال الزوّار والمهنئين له على السلامة من التيه. قال له:

ـ لا يشترى الشيء الجميل إلا بثمن باهظ. العافية أجمل ما في الدنيا فلا تندم على ما حصل.

ثم اختلى به في العراء مع حلول المساء، وعزّاه بسؤال:

ـ هل تألمت كثيراً؟

(*) التيجانية: نسبة إلى العالم الإسلامي التيجاني الذي أسس هذه الطريقة في القرن التاسع عشر.

(**) القادرية: نسبة إلى العالم الإسلامي عبد القادر الجيلاني الذي أسس أحد أهم المذاهب الصوفية في القرن الثاني عشر الميلادي.

لم يجبه أوخيّد. أوخيّد يقلقه شيء آخر. لم يستطع أن ينتظر. فسأل شيخه:

ـ هل أطمع أن أرى الأبلق في أصله؟

استفهم الشيخ بإيماءة، فأوضح الشاب:

ـ هل يسترد الأبلق لونه؟

ابتسم موسى في العتمة، وقال:

ـ الله جميل يحب الجمال. وإذا اشتريت له الشفاء بهذا العذاب فلا بد أن تدفع مقابل الكمال أيضاً.

لم يفهم أوخيّد، فأوضح الشيخ:

ـ التكفير، الطهارة. ألا تفهم؟

ـ الطهارة؟

ـ نعم، لا بد من الإخصاء.

ـ الإخصاء؟

ـ وماذا تظن؟ ألم نتفق على أن لكل شيء ثمناً؟

ـ . . .

ـ البدن آثم. البدن كله خطيئة. يلزم نزع السبب من أصله.

صمت الشاب طويلاً قبل أن يقول:

ـ لا أستطيع أن أنفرد بالرأي. لا بد أن أستشير. لا بد أن أفكر.

ثم استدار واختفى في العتمة.

- ١١ -

في خلوتهما بالمرعى، قال له:

ـ أعتقد أن ما فعلته بنا فعلتك يكفي. لا يجيء من النّوق إلاّ الهمّ أم إنّك ترى رأياً آخر؟

تخشّن الجلد الجديد، والتأم الجرح. اختفت الحمرة المقززة، ولكن الوبر لم ينبت بعد. لم يعلّق المهري على اقتراحه، فواصل الشاب:

ـ الشيخ موسى يقول لا بد من نزعٍ السبب. البهاء ليس سهلاً أيضاً. كل شيء يطالب بقربانه. لن تتألم طويلاً. سنفعل ذلك في الصيف. الصيف أنسب موسم.

نفض الأبلق رأسه بعصبية. هل هي علامة رفض؟

سارع أوخيّد:

ـ لا. لا. انتظر. لا تتسرّع فتندم. ما حدث لا يليق بك. الجرب لا يليق بالفرسان.. لا يليق بالسلالات النبيلة. هل رأيت أبلق مصاباً بـالجرب؟ انتظر. أنت بهيّ. أنت جميل. الجمال لا يقدّر بثمن. لا يشترى بثمن. أنا على استعداد أن أدفع حياتي ثمناً للجمال. أنت لا تعرف معنى أن تكون أجمل مهري في الصحراء. آه. آه. ما سنفعله سيزيدك رشاقة. ستزداد

قامتك اتساقاً. صدقني! اسمع كلامي. هل تظن أنني سأفعل لك شيئاً يجلب السوء؟ هل تسيء بي الظن؟

فتح الأبلق فكيه على اتساعهما، وبدت في عينيه الذكيتين اللتين عاد إليهما الألق والبريق، مشروع ضحكة خبيثة.

ضحك أوخيّد أيضاً. قال:

ـ فهمت. تريد أن تقول إن الأنثى أجمل. لا. لا. لا تخطىء بالله. جميلة حقّاً. ناعمة حقّاً. كالأفعى. ولكنها تلدغ كالأفعى أيضاً. لقد جربت لدغتها. تعرف ماذا فعلته بنا لدغتها في المرة الماضية. لا. لا. هذا يكفي. استح والعن الشيطان.

ربت على رقبته وتفقّد الجلد وتمتم:

ـ عندما ننتهي من همّك ونخلّصك سنبدأ مشواراً آخر. سنتعلم الرقص. المهاري النبيلة لا بد أن تتعلّم الرقص أيضاً. الرقص. الرقص. أنت لم تجرّب الرقص. سوف يغنيك عن الحبّ. صدقني. ستطير في الهواء وتعبر السماوات. تشق الفضاء حتى ترى الله. أليس أن ترى الله في السماوات أفضل من الجري خلف النوق الحمقاوات على الأرض؟ قل ليّ..

جلس في العراء أمامه، وقال وهو يعقد يديه حول ركبتيه:

ـ ولكن لا بد من الطهارة. لن تفوز بالجمال ولن تلقى الله بدون طهارة. الطهارة هي الشرط. أعترف لك أنه عمل قاس، ولكن ليس لدينا خيار.

ثم حلّ الصيف، وجاء موعد العمل. تذرّع أوخيّد بالسفر إلى «القريات» لجلب إبله التائهة هناك. ترك الأبلق لأيدي الجلادين. الشيخ موسى وحده عرف أن سفره ليس للحاق بالإبل وإنما هرباً من اليوم الموعود.

في اليوم التالي لغيابه، تكأكأ الرجال على الجمل المسكين. النصف

الأول من النهار قضوه في منازعته وتطهيره من «البـلاء»، وأنفقوا النصف الثاني من النهار في إجباره على ابتلاع الخصيتين تكميلاً للطقوس.

عاد أوخيّد من رحلته، فوجد المهري مهموماً. داعبه. ومسّد على جلده الملتئم، ولكن عينيـه ظلتـا تفيضـان بـالحـزن. اختلى بـه في المـراعي الجنوبية، وأخرج من الجراب شعيـراً، طرحـه بين راحتيه، ولكن الأبلق أشاح بوجهه. لاحقه بالطعام، ولكن الحيوان أصرّ على موقفه. قال أوخيّد وهو يعيد الحبوب إلى الجراب:

ـ أعرف سبب جفاءك. أنت غاضب لأني تخليت عنك. أنا لم أتخلّ عنك. سبق واتفقنا. الآن ضمنا عودة اللون. الآن ستعود أبلق كما كنت. ألا يسرّك أن ترى نفسك أبلق، جميلاً، نادراً؟

اغرورقت عينا الأبلق بالدموع، فاحتضنه أوخيّد.

مكثا طويلاً متعانقين في المدى الأبدي قبل أن يتكاثف المساء.

«الآلهة لا تغفر الحنث بالوعد».

سوفوكليس

ـ ١٢ ـ

الأبلق لم يغفر له، فهل أخطأ التقدير؟

الفضيحة في ساحة الرقص دليل. الجمل لا ينسى الإساءة. الجمل مثل العبد. إذا أسأت له فاحذره. هكذا يقول الرعاة الحكماء.

وبدل أن ينال قصيدة مديح، نال قصيدة هجاء قاسية من الشاعرة الملعونة.

بعد يومين، ترددت أصداؤها في النجع. كان مطلعها: «اللون أبلق... والرأس أحمق». الملعونة. سيقطع لسانها.. سيذيقها طعم السوط.

في ذلك اليوم، بعد الفضيحة، أخذ المهري إلى المرعى، وحاسبه في الخلاء.

أناخه تحت السدرة، وصرخ ملوّحاً بالسوط في الهواء:

ـ الآن ستخبرني ماذا فعلت لك حتى تفعل بي ما فعلت؟ الآن ستقول لي لماذا شوهتني بالعار؟ كان عليك أن تشكرني بدل أن تفعل بي ما فعلت. انظر إلى لونك. عاد أبلق أكثر من ذي قبل. ولو لم أنقذك من النوق الحمقاوات لما هنأت بهذا البهاء. فهل أستحق منك، بعد كل هذا، مكافأة كهذه؟ قل لي...

احتج المهري، واشتكى محاولاً أن يشيح بوجهه، ولكن أوخيّد اعترضه، وصاح غاضباً:

ـ لا تتهرّب. يجب أن نتحاسب اليوم. ألم تسمع بالقصيدة التي نلتها من الشاعرة اللئيمة؟ كانت تتصيّد أخطاءنا من زمان. حجزت عندها قصيدة مديح فاشترطت أن تراك راقصاً. تمردت في الرقص نكاية بي، فانظر ماذا كانت النتيجة؟ ألّفت قصيدة هجاء، فهل يرضيك هذا؟

نهض، وضرب كفّاً بكف، وتمشّى في العراء. دحرج الأحجار بنعله، وردد:

ـ حماقة. حماقة. بدل أن نعجِّل بدفع ديننا نتخاصم ونتعارك. يجب أن نوفي بالنذر. هل نسيت النذر؟

المهري لم ينس النذر. أوخيّد هو الذي نسي النذر. لم ينسه تماماً ولكنه اشترى مهرياً من الشنقيطي المهاجر إلى مكة. استبدله بكليمة تواتية(*) بديعة. جاء الشيخ من مرّاكش وقال إنه قرر أن يترك الدنيا لأهلها ويقيم في مكة نهائياً ليجاور قبر الرسول فنحروا له معيزاً واستضافوه ثلاثة أيّام. تخلّص من بقية ممتلكاته وباع آخر حيواناته. فكان المهري هدية من الشيخ الزّاهد. وأخذ منه الكليمة ليس من قبيل المقايضة كما قال وإنما لحاجته إلى سجادة للصلاة.

تذكّر أوخيّد الكلمات التي نطقها في وعده عند ضريح وليّ الأوّلين: «يا وليّ الصحراء. إله الأولين. أنذر لك جملاً سميناً سليم الجسم والعقل...». والمهري لا هو بالسمين ولا العاقل ولا يملك الجسم السليم بعد. فقرر أن ينتظر حتى يكبر فيسمن ويعقل ويسلم جسمه. عندما حدثت الفضيحة في ساحة الرقص كان المهري البكر لا يزال يسمن ويرتع في

(*) كليمة تواتية: تشتهر توات بصناعة النسيج والسجّاد، خاصة الكليم.

المراعي الجنوبية، فرأى أوخيّد اليوم إشارة فيما حدث. الوليّ أعلن عن نفسه وحذّر. طلب التعجيل بقربانه.

ثم تتابعت الأحداث، وجاء القدر بالغفلة، فوجّـه المصير في مجـرى آخر.

ليس ذلك غريباً. فالإشارة، مثل النبوّة، تومض مرّة واحدة.

- ١٣ -

«لا بارك الله لك فيها».

بهذه الوصية بعث له أبوه مع الشيخ موسى.

لم يتوقع إجابة مثلها، فطافت في عينيه سحابة غضب، فهدده موسى بسبابته: «تمهّل. لا كما يجيب الأب يجاب». فبلع غضبته، ونهض كي يخفي قهره في الصحراء.

والسبب أن حواء نزلت على القبيلة تهش معزات عجفاوات.

جاءت الحسناء من «آير»(*) مع أقاربها هرباً من الجدب الذي حاق بتلك الصحراء في السنوات الخمس الأخيرة. وبرغم أن البلاء كان بادياً على الحيوانات البائسة إلا أن الحسناء لم تنقصها النضارة ولم يفقدها طول الطريق البهاء. وإلى جانب جمالها تمتعت بروح مرح وجاذبية. هذه الجاذبية هي التي صرعت أوخيّد في أول لقاء.

الجاذبية. الجاذبية. آه من جاذبية الأنثى. إنها ذلك الجانب الخفي في المرأة. إنها واضحة وبسيطة مثل الصحراء، ولكن ليس ثمة شيء يفوقها غموضاً وخفاء. إنها كهمهمات الجن في جبل الحساونة تسمعها ولكنك لا تستطيع أن تميز الكلمات. تسمع النطق ويغيب عنك المعنى. هذه هي

(*) آير: يطلق آير أحياناً أخرى على تمبكتو أو أغاديس أو كانو.

الجاذبية. لا أحد يعرف ما هي ولكنها تجذب وتجذب. قد توحي بها التفاتة، أو ابتسامة خفيفة أو نظرة عابرة، أو هزة من الرأس، أو طريقة النطق بالكلمة، أو حتى مجرد رنّة، نغمة، في الصوت. الجاذبية هي الجمال الخفي الذي خلق كي يصرع أمثاله من الرجال.

تعرّف إليها في حفل ليلة قمرية، وتابع ابتسامتها السحرية في الضوء الباهت، وتابع خيال قامتها الهيفاء وهي تتنقل بين النساء. ثم سمعها تغنّي. يا ربي. ما أقوى صوتها. تغني من قلبها. كأنها تنوي أن تنزع الوحشة من قلبها. وحشة الحياة وقسوة الصحراء. وكل ما عجزت جاذبيتها عن التصريح به عبّر صوتها الإلهي عنه. وكل من سمعها تغني في تلك الليلة، وقع في الوجد وجذب. حتى هو وقع في الوجد وجذب مع الشباب حتى الصباح.

التقى بها بعدها مراراً، في ليالي السهر وفي المراعي. أسمعته الأغاني الربانية في الخلاء، وأنصت للوعة صبيّة طردها الجدب والجفاف، ودفعها للهجرة والغربة عن بلادها الأصلية. ولم يكن اصطياد هذه النغمة صعباً على أهل الصحراء، المهاجرين الأبديين. فمن في الصحراء لم يذق طعم الجدب؟ من لم يطرده الجدب؟ من لم يهاجر؟ من لم يتغرّب؟ هذه الأشياء قدر الصحراء. وكل أغاني الصحراء تعبير عن الشجن والجدب والاغتراب.. الاغتراب الأبدي والحنين الدائم للعودة إلى السكينة والأصل.. حنين إلى تلك الواحة الرحيمة التي لا وجود لها.. الواحة الأصلية.. الواحة التي تعتبر واحات «فزّان» كلها مجرد ظلّ بائس لها.

أوخيّد رأى طيف هذه الواحة في لحظة السقوط في البئر وأخفى السرّ، فأحرقته الآن أغاني الفتاة بالشوق والحنين والشجن. بكى في قلبه، وحاور الفتاة كثيراً. سألها عن آير والجفاف وآلام الهجرة من تمبكتو. ثم تناظر معها بالأشعار. كانت تحفظ قصائد تفوق عدد شعرات رأسها.. الشعرات

السوداء المضفورة في جدائل كثيفة ترقد على صدرها النافر.

خطبها من عمّها، وحاز على الموافقة.

بعث إلى الوالد يستشيره، فأدهشه الجواب: «لا بارك الله لك فيها». هو لم يعرف والده. لم يعش مع والده، ولم يعرفه. كل ما عرفه أن النساء تحتل المرتبة الأولى في حياته. أمّه احتلت المرتبة الثانية من بين زوجاته. كانت المسكينة معلولة، ضعيفة البدن والقلب. يذكر وجهها الشاحب قبل أن تموت. ماتت بالقلب قبل أن يبلغ السابعة. فأشرفت زنجية على تربيته، وتزوج والده امرأة أخرى من قبائل الأتباع.. تزوجها قبل أن يتولّى المشيخة، ولم ينجب منها ذرية. ولكن غزواته للنساء الأخريات لم تتوقف طوال هذه السنوات. وقد اشتهر عنه ترديده لحديث الرسول: «أحبّ إليّ في دنياكم ثلاث: النساء والطيب وقرّة عيني الصلاة». ويروق له أن يعقب على الحديث: «أرأيتم؟ وردت النساء في أول السطر. النساء رأس الأركان الثلاثة». وعندما كانت القبيلة تقوم بغزوات داخل القارّة، كان الوالد يتنازل عن نصيبه من كل الغنائم باستثناء النساء، فيستحوذ على حصته من الزنجيات، ويعود بهن إلى الصحراء، ليتخذهن محظيات. بل إنه تزوج عدداً منهن على سنّة الله برغم أنهن مجوسيات، ولم يكن يعرفن الإسلام. ويقال في القبيلة إن سبب منازعاته مع أمه - في تلك السنوات عندما كان طفلاً صغيراً - هو مغامراته مع خلاسيّة حسناء تقيم في نجع مجاور. وبعد وفاة الأم تولّى المشيخة، ورثها عن خاله الذي مات فجأة. ويروى أن الخال لم يكن ينوي أن يورثه الزعامة لولا مصرعه المفاجىء على أيدي قطاع طرق في صحاري «دنبابة». ولم يستطع شيوخ القبيلة مخالفة العرف لمجرد عشق ابن الأخت للنساء. إذ لم يكن عشق النساء في تلك الأيام رذيلة تطعن في رجولة الرجل. بل إن الوله بالمرأة من ميزة الفرسان والنبلاء. وقد دعّم الوالد موقفه بترديده للحديث الشريف حول النساء، فقطع الطريق على

رجال الدين، وضمن اتقاء شر المتفقهين ومؤيدي الاحتكام إلى الشرع في فصل المنازعات.

تعلّم بعض آيات القرآن على يد فقيه أعمى قضى عمره متنقلاً مع القبيلة. ثم توفي الفقيه بوباء الجدري، فاحتل محله الشيخ موسى الذي لم يكن معلمه فحسب وإنما عامله مثل الصديق. ويبدو أن الشيخ موسى لاحظ ميله إلى العزلة وبرود علاقته بالوالد، فتودد إليه، وخفف عليه غياب الأم المبكر. وبرغم الطبيعة الانطوائية التي ورثها عن أمّه إلّا أن الشيخ الحكيم وجد الطريق إلى قلبه. في المرّة الأولى أنقذه من السيل الليلي. سمع البعض الرعد في النهار يهدر في جبال الشمال، ولكن العقلاء كذبوهم، واستبعدوا المعجزة، قالوا: «من رأى مطراً في الصحراء في عزّ الصيف؟ متى هطلت الأمطار في موسم القبلي؟»، واتهموا الذين أنذروهم بأنهم سمعوا «نداء القيامة»، وتوهموا أنهم يسمعون هدير الرعد. فلم يتحرّك أحد للخروج من الوادي، فجاء السيل في آخر الليل، وجرف القبيلة. الوحيد الذي لم يغافله الماء ليلتها هو الشيخ موسى، إذ كان يقرفص أمام خيمته يقرأ أوراده عندما داهم السيل النجع.

أما هو فنام في المدخل تحت ضوء القمر، واحتمت عجوزه الزنجية بالخباء خوفاً من الأفاعي والذئاب. رأى في الحلم جمرات الموقد تسبح فوق ماء وفير دون أن تنطفىء، ثم وجد نفسه يسبح بجوار الجمرات المنطفئة، فاختلط الحلم بالحقيقة لمّا صحا من نومه. الضجة في قمتها. العجوز أيضاً تصرخ. نساء النجع وأطفاله كلهم يصرخون. الرجال يصيحون. الماعز يصيح. وهدير الماء يزلزل الأرض. ولكن هذه القيامة كلها لم تنزع من أذنه فحيح الجمر المنطفىء عندما غمره الماء في المنام. وظلّ هذا الفحيح يضج في أذنيه حتى اليوم. هرع الشيخ موسى والتقط العجوز بيمناه، واختطفه من وسطه بيسراه وقطع بهما الوادي.

وكل ما يذكره من تلك التجربة هو ذلك الهمس الغامض. فحيح الجمر.

- ١٤ -

الشيخ موسى هو الذي توسط بينه وبين الوالد في خلافهما الأول، إذ أراد الأب أن يحصّن المشيخة في نسله ويحفظها من الأغراب فقـرر أن يزوّجه بنت عمّته. . شقيقة موخامّد الذي يتهيأ لاستلام المشيخة منه. قال له في وصيّة حملها له موسى إن هذه فـرصته الـوحيدة كي يحتفظ بيتهم بالزعامة. إذا أنجب من بنت عمّتـه ذكراً ضمن الاحتفـاظ بالمشيخـة في العائلة. ولكن أخت موخامّد لم ترد له على بال. فتاة بليدة، مطفأة العينين. لا شرر ولا شعر. لا جاذبية ولا مواهب. فتاة عادية ذات ملامح مرضية. ثم إنها لم تخطر له على بال في يوم من الأيام. لم ير فيها المرأة. لم ير فيها الأنوثة، فكيف يجرؤ ويتزوجها؟ لعن المشيخة، وبعث لوالده بـالرفض. سكت الأب على الإساءة ليردّها له اليوم في جوابه القاسي: «لا بارك الله لك فيها». فأحرق بهذا الدعاء قلبه.

لم يكن في حاجة إلى مـواعظ الشيخ مـوسى كي يعرف معنى دعـاء الوالدين، فكل فتى في الصحراء يعرف أن السماء تشرّع أبوابها كل صباح لاستقبال مثل هذا الدعاء.

ولكن العناد أيضاً ورثه عن أبيه. ورث عنـه العناد قبـل أن يرث حب الزعامة.

أخذ منه العناد، وترك له حب الزعامة. العناد أنفع لمجاهدة الصحراء.

أما المشيخة فلا يأتي منها إلا وجع الرأس. فلوى العصا في يده واختار «أيور». هرب من العرش، وارتمى في أحضان آلهة الجاذبية، فلن يبحث عن إرث الزعامة من جرّب الخلوة مع حوريات الفردوس وشرب من النهر السماوي. عقد على الفتاة المهاجرة، وردد تعويذة أبيه نفسه في حديث الرسول: «أحبّ إليّ في دنياكم ثلاث: النساء، الطيب، وقرة عيني الصلاة».

اختار الأنثى.

الأنثى نفسها التي كانت سبباً في بلاء الأبلق. والمهري الذي نذره لولي الأوّلين وتركه في المراعي حتى يسمن ويعقل ويتكامل، كان المهري الذي نحره ليلة العرس.

- ١٥ -

النتيجة: تبرّأ منه.

قال للشيخ موسى: «أبلغ الأحمق أن أيموهاغ(*) على حق عندما سنّوا النسب إلى الأم، قل له أن يرافقها إلى بلاد السحرة»(**).

ثم حرمه الميراث، فانفصل عن القبيلة. لم يذهب إلى بلاد السحرة لأن الجدب هناك دفع إلى الصحراء الشمالية بمزيد من المهاجرين، ولكنه نزح إلى الأودية السفلية المتاخمة لحدود «فزان». يتجاور مع رحّل من مختلف القبائل والمُلل في مواسم الأمطار ويستقر بالواحات في الصيف حتى أنجب مولوده البكر.

في تلك الأثناء شهدت الحمادة الحمراء أحداثاً دموية، إذ نجح الغزاة في كسر المقاومة بالسواحل وتدفقوا في الدواخل عبر الصحراء الشمالية. جاء الرسل لتجميع المقاتلين، فاختلى بالأبلق، وقال له: «وماذا كنت تظن؟ هل تظن أن الحياة أغنية أبدية؟ اعلم أن الفرسان لن يهنأوا بمثل هذا اللقب حتى يعودوا من الحرب. لن يدّعي الفروسية من لم يهنأ بالحرب. هـذه فرصتنا».

(*) ايموهاغ: الطوارق.

(* *) بلاد السحرة: هي كانو وتمبكتو.

ولكن القدر فوّت هذه الفرصة. جاءت الأنباء بانكسار المقاومة في الحمادة أيضاً و... باستشهاد الوالد. قيل إنه قاوم ببسالة. بل إن أهل الصحراء نظموا القصائد بعدها تمجيداً لبطولته. ربما لأنهم لم يتوقعوا من رجل مزواج متيم بالسبايا الزنجيات أن يسطر المآثر في مقاومة الطليان. أحد الرعاة أخبره أن الهجوم المباغت لم يفقده السيطرة على نفسه، فطاف على القبيلة، وجمع المقاتلين، وحارب حتى حوصر معسكره. طال الحصار فاختلف مع بعض المشايخ الذين هدّهم العطش ورأوا ضرورة التسليم. انفصل عنهم مع عدد من المخلصين. اعتصم بجبل الحساونة حتى مات. مات بالعطش، فاستسلمت القبيلة كغيرها من القبائل. تولّى ابن عمته المشيخة بعد انتظار طويل، ولكنه لم يسعد بها، فقد تشتتت القبيلة وهاجرت إلى الجهات الأربع. لجأت بعض العشائر إلى غدامس، ولجأت عشائر أخرى إلى «تامنغست»، وعزمت بعض العائلات أن تنزح إلى السودان. ولم يفد سعي الشيخ الجديد لتجميعها. فشل في إقناع الشيوخ بالتذرع بالصبر والانتظار حتى يمرّ البلاء. وهو لا يزال يتنقل في الصحاري ساعياً لتجميع الشتات كي يمارس مهام المشيخة. آه. لو تشتتت كل القبائل في الصحراء الواسعة لاندثرت الخلافات حول المشيخة ولما تقاتل الأشقاء للفوز بالزعامات.

في ذلك الزمان بالضبط، نزل عليهم قريب زوجته ضيفاً. جاء مرافقاً لقافلة محملة بالذهب والعاج وريش النعام. باع ذهبه وريشه وعاجه في غدامس قبل أن يبلغها سيل الغزاة. اشترى بالمال قطعان الإبل، ورابط في صحراء «دنبابة» مع بعض الرعاة.

مكث هناك شهوراً ثم استخدم الرعاة في العناية بالإبل، وزارهم في مستقرّهم الصيفي في «آدرار». قال إن «أيور» قريبته من أمّه، وجاء كي يطمئنها على الأهل. في عينيه رأى أوخيّد تصميماً يعرفه جيّداً.. التصميم القاسي في عيون المهاجرين الأبديين: التصميم الذي يخفي أسراراً يعجز

اللسان عن النطق بها.

في أثناء إقامته، لم يصبر أوخيّد، فأفشى سرّ تعلقه بالأبلق. تغنّى أمام الغريب بالسؤال: «هل سبق لك وشاهدت مهرياً أبلق في كل الصحراء؟»، «هل رأيت جملاً في رشاقته وخفته وقامته؟»، «هل رأيت أجمل منه وأنبل؟». فكان الضيف يبتسم بين كل سؤال وسؤال، ويهز رأسه بالنفي. ولم يكن أوخيّد الغشيم يدري أن الثرثرة تقود إلى إفشاء الأسرار. وإفشاء السرّ للغرباء، في قانون الصحراء، يكلف المهاجر حياته.

هذا ما تقوله العجائز نقلاً عن السحرة والعرّافين في «كانو».

مكث معهم أياماً في الواحة ثم استأذن للسفر. باع جملاً وناقة للفلاحين، وتزوّد بالتمر والشعير، وعاد إلى إبله. وعد أن يعود لزيارتهم عندما تسمح الظروف. وبعد ذهابه اكتشف أوخيّد أن الضيف ترك له مفاجأة. أخفى له في مطموره كيساً من تمر وآخر من شعير.

- ١٦ -

ولكن الكيسين سرقا من المطمور بعد يومين، ووجد فوق المخزن على الرمل إشارة تركها اللّص. رسم بحبّات التمر مثلثاً واضح الأضلاع واختفى. حار في الرمز، ولجأ إلى عجوز تباوية عمياء تقرأ الغيب. قالت العرّافة:

- قلت مثلث؟ هل نذرت شيئاً للآلهة «تانيت»؟(*).

انشق رأسه، وقفز كمن طعنه بسكين:

- الآلهة تانيت؟ للآلهة تانيت؟

تذكر النذر. تذكر الولي. تذكر قاعدته المثلثة الأضلاع. أكل النذر. أطعمه للعروس. نسيه تماماً. يا ربي، أهي إشارة من الآلهة تانيت؟ تلك علامتها. مختومة بالنار على سواعد الرجال وتحت سرّة النساء. رآها في العتمة على بطن «أيور» أيضاً. على مقبض السيف وفي وشم التمائم، في مقدمة السروج وفوق الجعب والجرابات وزينة اللباس. هي في كل شيء وفي كل مكان. فهل اختفاء الغرارتين تذكير وتحذير؟ اغفري يا تانيت. اغفري. لقد نسيت. سهوت. لم أتأمل الإشارة في القاعدة المثلثة. كنت غافلاً. كنت مريضاً.

(*) تانيت: آلهة الحب والخصب والتناسل عند قدماء الليبيين. وقد اعتنقها منهم البونيقيون فيما بعد. ويرمز لها بمثلث على شكل هرم.

و. . . اشتدّ الجوع، وشمل الصحراء كلها.

فبعد نشوب الحرب في السواحل، ارتبكت حركة القوافل إلى الدواخل في أعماق القارة. وتوقف القوافل والتجارة لم يؤثر في السنوات الأولى، ولكن استمرار الحرب صعّد الجوع، وجعل الفلاحين يرفعون أسعار الغلال والتمر. وفي الشهور الأخيرة أخفوها في المطامير السرية، ورفضوا البيع أو المقايضة. وقد اختفى الكيسان في قمة حاجته إليهما، فزاده ذلك غضباً وحقداً على نفسه وعلى النساء.

في ذلك الوقت، كان قادراً على أن يحقد على النساء لأنه يستطيع أن يرى الآن بعينيه لا بقلبه كما في الماضي، إذ بردت عواطفه وعاد إليه عقله، فتلاشى السحر، واختفت الجاذبية. . تلك الجاذبية التي اعتقد أنها خالدة ورآها طاغية كالقدر الذي شاهده في الوحي في أثناء السقطة، وأيقن أن القرب في الحب هو مقبرة له، والزمن تميمة تبطل سحره وشعره.

والأنثى التي جلبت البلاء للأبلق هي التي دفعته لأن يعد ويخلف، يحلف ويحنث. لم يخلف وعداً في حياته، وها هو يسهو ويفعلها. مع من؟ مع رموز الأوّلين. مع الآلهة «تانيت» نفسها. ليته علم أن النصب نصبها وإلا لما نسي، ولكن الحقيقة لا تمثل أمامنا إلا بعد فوات الأوان. هذا قانون تردده العجائز دائماً.

أخفى السرّ عن العرّافة، وذهب إلى العراء. جلس حتى منتصف الليل من دون أن يتوصل إلى حل. فطالما لم تأت الذاكرة بالحقيقة إلا بعد سيادة الجوع فمقاومة المكتوب أيضاً كفر. فمن أين له بجمل معافى، قوي، عاقل، في السنين العجفاء؟ كيف يستطيع أن يدبّر جملاً وهو جائع وامرأته وطفله مهددان بالجوع أيضاً؟ تذكر كيف شوى مداسه الجلدي وأكله منذ أسابيع في الصحراء الرملية. ذهب يقتفي أثر جمل اشتراه سنوات الرخاء

بتركه يرتع في الوادي الفاصل بين الصحراوين: الجنوبية والشمالية. قابل أحد الرعاة وأخبره أنه رآه منذ أسابيع في الشرق. سافر على ظهر الأبلق حتى بلغ «زورزاتين» فقال له رعاة «كيل أبادا» إنهم شاهدوا لصوص الصحراء يقتادون الجمل ويعبرون به الصحراء الشرقية نحو غدامس مع قافلة من الإبل المسروقة لبيعها هناك. وتضاربت الأقوال فادّعى آخرون أن قطاع الطرق أكلوه في مكانه. هام بعدها يائساً جائعاً. لم يذق طعماً لطعام منذ أيام. وبرغم ذلك رفض دعوة «كيل أبادا» لتناول طعام العشاء. الصحراء الرملية لا تعد بشيء. الصحراء الرملية خائنة. عدم. لا عشب، ولا شجر برّي، ولا حيوانات برية. صحراء الحمادة جنة بالمقارنة مع هذه الجاحدة. إذا لم تجد شاة غزال أو ودّاناً(*) أعطتك أرنباً. وإذا لم تجد أرنباً استضافتك بعظاءة. وإذا كان الفصل لا يناسب ظهور العظاءات دعتك إلى مائدة خضراء بالعشب. وإذا بخلت السماء بالأمطار رحمتك بنبق السدر من ثمار العام الماضي. يا إلهي. ما أرحم الحمادة. ولكن الصحراء لا تطعم إلا الرمل والغبار والقبلي.

لم يستطع أن يصمد أكثر، فنزع نعله الجلدي. جمّع الحطب وأوقد النار، شواه على النار حتى تلوى وانكمش ثم نهشه بشراهة. كان لذيذاً. لا فرق بينه وبين جلود الإبل التي سبق له أن أكلها كثيراً. تفتحت عيناه بعد الوجبة، وبدأ يبصر خيال الأبلق. خيّل إليه أن الجمل يبتسم. عيناه تبتسمان. يسخر منه. قفز وهدده بسبابته:

- إيّاك وأن تخبر أحداً بما رأيت! هل فهمت؟ هذا سرّ.

نزع النعل الآخر، وتفحصه بين يديه. انهار على الأرض. خاطب صديقه كأنه يخاطب نفسه:

(*) الودّان: أو (الموفلون): أقدم حيوان في الصحراء الكبرى، وهو تيس جبلي انقرض في أوروبا في القرن السابع عشر.

ـ لا تسحر مني فأنا مخلوق ضعيف. ماذا تظن؟ الفارس أيضاً مخلوق بائس، يأكل نعله عندما يشرف على الموت جوعاً. لا تقسني بنفسك فلم يهبني الله مخزناً للماء والطعام مثلك. الجوع يهين أنبل المخلوقات. السلاطين أيضاً تركع على الأرض إذا جاعت وتزحف ذليلة كالعبيد. فاغفر لي. اغفر لي!.

بكى، وتمرّغ في التراب طويلاً.

«سمعت سفيان بن عيينة يقول: صاحب العيال لا يفلح. كانت لنا هرّة لا تكشف القدور، **فلمّا** ولدت كشفت القدور».

أورده البيهقي

في «الزهد الكبير»

- ١٧ -

قفز في الليل مذعوراً.

رأى العرافة تقف فوق رأسه وتطالبه بأن ينحر الأبلق.

مسح العرق وتسلل خارج الكوخ. أطل قمر خجول باهت الضوء، ولكن السكون في الواحة جليل. من غابة النخيل تناهت زغاريد الجنادب الليلية. تمشى في العراء وفكر أن العرّافة التباوية غولة. ما رآه ليس حلماً. إنه خيال غولة تريد أن تأكل لحم الأبلق. أي امرأة تجرؤ أن تأكل لحم حيوان طويل القامة، ممشوق القوام مثل الأبلق لولا أنها غولة نهمة تقتات باللحم الآدمي؟

غداً سيذهب إليها ويذبحها. سيعرف في البداية ماذا أرادت أن تقول بهذا الطلب. فربما كان ذلك مجرد إشارة.. علامة.. لغة العرافين المجهولة.

عاد إلى الكوخ، ولكنه خشي أن ينام. عندما يرى الإنسان الكابوس في الفراش يخاف النوم.

في الصباح قالت له فلّاحة إن العرافة التباوية هاجرت. جاءها ابنها وأخذها معه في قافلة عابرة إلى أغاديس.

رآها بعد ثلاث ليال عقب رحلتها، وقالت له: «لست أنا التي تطلب

رأس أبلقك. إنها تانيت». ثم اختفت. اختفت إلى الأبد.

لم يرها بعد ذلك، فنسيها بعد أيام. عاد إلى نفسه وتفرغ لمقاومة الجوع. بالأمس ماتت عائلة من زوج وزوجة وثلاثة أطفال. قُفلت أبواب الرزق في وجوههم فحبسوا أنفسهم في كوخ ولم يرهم أحد حتى تعفنت الجثث فاقتحم أقرب الجيران الكوخ: وجدوهم مكومين فوق بعضهم. تحللت الأجساد ودبت عليها الديدان. عيون الأطفال جاحظة، فقال إمام الجامع إنهم ماتوا مخنوقين. خنقهم الأب على ما يبدو حتى يمنع صراخهم من الوصول إلى آذان الجيران.

في المساء، قالت له «أيور»:

ـ إذا لم تفعل شيئاً فيحسن أن نفعل مثلهم. لن نفعل ذلك هنا ولكن في الصحراء. لن يعدم وجود ثلاث رصاصات في بندقيتك.

لم يجبها.

في الصباح، قصد بائع الزيت كي يقترض منه. عرفه سنوات الرخاء وقايض منه الشعير والتمر والسكر مقابل شرائح الغزلان والودّان. لن يردّه خائباً. ولكن البائع أقسم أنه لا يملك عشاءه. السمسار ابن السمسار. لا يملك عشاءه. منذ شهور فقط استقبل قافلة من تمبكتو واشترى بضائعها بالجملة. وما لبث أن باع نفس البضائع لتجار غدامس بأسعار مضاعفة. يقال إنه اشترى الحبوب وطمرها في الرملة شرق الغابة وشرع يبيعها للفلاحين بعد اشتداد الأزمة بأثمان خيالية. المرابي ابن المرابية. لقد اشتم رائحة الجوع قبل أن تشتد. عرف أن الحرب ستستمر.

تذكر تلميحها الخفي.. تحقيرها الخفي. لا تحتقر المرأة شيئاً كما تحتقر الرجل الخائب. الرجل الفاشل.. الرجل الذي تعتقد أنه فاشل. تناصبه العداء حتى لو كان أقرب الناس. ما أقسى المرأة! يا ربي أين الجاذبية؟ أين الشعر؟ أين الشرر؟ قصد أحد الفلاحين. أقسم أيضاً. في

الزمن العصيب كلهم يقسمون. يحنثون. يخفون. الكل يرتعد. الخوف من المستقبل. . من المجهول. . من مفاجآت الحرب.

جلس طويلاً على حافة الجدول ثم انصرف. قطع مسافة قصيرة فأدركه الفلاّح. في عينيه تلألأت دمعتان. بسط راحته عن حبات تمر. ثلاث. أربع تمرات. قال:

ـ هذا من أطفالي. . للطفل. أعرف أن عندك طفلاً.

رفع رأسه، وأكمل موجهاً خطابه إلى السماء:

ـ يا ربي ما ذنب الأطفال؟

تأمل الحبات الأربع لحظات. انبثقت من عينيه دمعتان أيضاً، أخفاهما بلثامه، وأخفى التمرات في جيبه.

قبل أن يختفي في أحراش النخيل، سمع نداء الفلاّح:

ـ ولكن لماذا لا تبيع المهري؟ هل يجوع رجل يملك مهرياً مثل مهريك؟

توقف. خطر له أن يعود ويعيد إليه الحبّات. كيف يجرؤ الوقح؟ هل يريد أن يأكل لحم أخيه؟ هل يظن الأبله أن الأبلق حيوان؟ ندم في أخذه للتمرات. سيردّها. يجب أن يردّها مقابل الأذية. آه، من الناس. يكرمك بيد ويطعنك بيد. لم يردّها. عجز عن أن يعود. نداء الولد في البيت جرّه وأجبره أن يبلع الإساءة. الولد وُلد معلولاً مثل أمه، نحيلاً، شاحباً، ضعيف القلب والبدن، يسيطر عليه الوجوم. لم يبتسم أبداً منذ ميلاده، ولا يعرف سوى البكاء. بكاء الأولاد في البيوت هو الذي يجبر الفرسان على بيع مهاريهم في السوق. هكذا يقولون.

في الليل صعّدت من حملتها، دعمت موقف الفلاح من المهري:

ـ لن نموت ومهري مثله يسرح أمام البيت.

هذا آخر ما توقع أن تقوله. المرأة النبيلة لا تشتهي لحم المهاري حتى لو ماتت جوعاً.

لا يشتهي لحم المهري إلا امرأة... أوه. يا ربي. أين السحر؟ أين الشعر؟ أين الشرر؟ أين الجاذبية؟

امرأة وحشية.

سكتت ثم ألحقت بطعنة أخرى:

ـ لم نأكل سوى البرسيم طوال الأيام الماضية.. كالأغنام.

خنق الألم. لم يفلح. قفز واقفاً، وقال ساخراً:

ـ وكيف سنصل إلى الصحراء لاستخدام الرصاصات الثلاث بدون دابّة؟

• لم يجد لنفسه مكاناً من الغلّ. غلّ على المرأة وعلى نفسه وعلى العيال وعلى الدنيا كلّها. الإنسان لا يهنأ لحظة واحدة منذ أن يطل من بطن الأم. لا يطوي بليّة حتى يستقبل أخرى. من حرب الجرب إلى حرب الطليان. من ألم العطش إلى عذاب الجوع. ومن تقريع الوالد إلى كراهية الزوجة. من قسوة الصحراء إلى قرحة المعدة. وهكذا بالتناوب. لا تهدأ بلايا الدنيا حتى تبدأ بلايا ذوي القربى.

في الغابة تقيأ. دائماً يتقيأ عندما يحرقه الغلّ. لم يتقيأ طعاماً وإنما مادة صفراء ممزوجة بلعاب لزج. تقيأ العلّة.

عاد آخر الليل ونام خارج الكوخ.

لم تتبادل معه كلمة طوال يومين.

فشل في الاهتداء إلى حيلة.

ثم دخل قريبها الغريب الواحة. ذهب إلى السوق وقايض جملين ببعض البضائع. التقى به في مدخل السوق فاهتدى إلى الفتح الذي يحفظ له ماء

الوجه. الإلهام السماوي أنقذه من الذل. الغرباء لا يفهمون لغة المداينة والاقتراض. لا يفهمونها خاصة إذا كانوا أثرياء. سوف يرهن الأبلق. سيستدين منه جملاً أو جملين حتى تتوقف الحرب ويفرجها ربي. مقابل ذلك سيرهن أجمل مهري في الصحراء الكبرى كلها. لقد رأى البريق في عيني قريب «أيور» عندما حدثه عنه، وهو بريق لا يلمع إلا في عيون التجار الذين جربوا في حياتهم التعامل بالذهب. بريق الذهب. هل هو الجشع؟ هل هو الرغبة في الامتلاك والاستيلاء؟ قال لنفسه إنه سيكفل رزقاً للعيال حتى يفتح الله، وسيضمن في نفس الوقت الاحتفاظ بالأبلق.

ولكنه أخطأ في شيء واحد.

أوخيّد كان يجهل ما الذي يعنيه لفظ «رهن» في لغة التجار.

﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب﴾.

القرآن الكريم

سورة هود/ الآية ٦٤.

- ١٨ -

قبل الوداع ذهب يناجيه. في الصباح استعدّ للطقوس. ذهب إلى الغابة وتسوّل حفنة من البرسيم الأخضر كي يرشوه بها. في الليل قال له:

- كما ترى. لا ننجو من فخ حتى نسقط في آخر. ولكن اصبر. لقد اتفقنا أن السرّ في الصبر. الحياة هي الصبر. جربنا ذلك في الماضي.

ربت على رقبته، فتوقف الأبلق عن المضغ. أضاف:

- في الدنيا فراق أيضاً. الفراق أيضاً يأخذ نصيبه. ولكن لا تخف. لن يطول فراقنا. سنلتقي عندما تمر العجاجة ويتوقف الملاعين عن محاربتنا. الحرب لن تستمر إلى الأبد.

استولى عليه القلق. احتج:

- أع...

بلع اللقمة، ورفض الاقتراح:

- آع -ع -ع.. آ -ع -ع -ع...

حاول أوخيّد أن يهوّن عليه:

- هذه ليست أخلاق الفرسان. الأطفال فقط يبكون.. الأطفال والنساء. العقلاء يصبرون..

تمسح بثيابه، ودسّ رأسه في كمّه الفضفاض.

تعانقا طويلاً في صمت الليل.

في الصباح، انطلق به الغريب. ثبّت عليه السرج والجراب والرسن المزدان بخيوط الجلد الملونة. هيئة كاملة. ولكن لم يمتطه. شدّه إلى ذيل جمله الأشعث البشع وانطلق إلى صحراء «دنبابة» والتحق بإبله.

ولكن حتى أوخيّد، الذي تربّى مع البعير، لم يعرف طبع الحيوان إلى النهاية ولم يفهم ما معنى أن تصادق مهريّاً، إذ عاد الأبلق إلى الواحة قبل أن تمضي ثلاثة أسابيع على رحيله. في تلك الأثناء قايض أحد الجملين مقابل التمر والشعير فسدّ فم «أيور» وعينيها أيضاً. وسخّر الجمل الثاني في حرث جداول الفلاحين مقابل ربع المحصول. يخرج في الفجر ويعود في المساء متعباً. ينهار وينام كالقتيل. كان سعيداً لأنه يستطيع أن يتعب وأن ينام بعمق. نسي آخر مرة نام فيها بعمق. عاند الأرق طوال زمن الجوع. الجوع يسرق النوم. ليس الجوع الذي يسرق النوم ولكن العيال.. الولد.. المرأة. أمّا الآن فيغيب بمجرد أن يستلقي. لا يغيب بهذه السرعة بسبب التعب ولكن لأنه استطاع أن يسدّ فم المرأة وعينيها. هذا يسعده، في نفس الوقت يزعجه. يحس بقلق خفي. ربما لأن في ذلك إشارة. وهو يخاف الإشارات. الصحراء علّمته أن يتيقظ للإشارات. قالت له إنه ليس في الحياة شيء يمكن أن يعادل الإشارة عندما تتجاهلها أو تغفل عنها.

الإشارة هي القدر.

هكذا قالت الصحراء.

وكأي مخلوق أتعبه الاستنفار الطويل، استرخى بمجرد أن توارت البلية خلف الربوة الرملية فكان في ذلك غفلة. البلية تعود مع الاسترخاء وتتسلل في الغفلة. إذا عجزت أن تأخذك في عراك الندّ للند توارت لتطعنك من

الخلف عندما تستدير وتعطيها ظهرك.

هذه تعاليم تعطيها الصحراء للرعاة مجاناً كل يوم، ولكنها تتخلّى عنهم بمجرد أن يسكنوا الواحات ويتطاولوا في الزراعة.

وهذا ما حدث مع أوخيّد، فالسيف الذي لا يستعمل طويلاً يعلوه الصدأ، فالواحة زينت له الاسترخاء في شيء يسميه الفلاحون: الراحة. الراحة تخفي الاسترخاء، وفي الاسترخاء يكمن الصدأ.

مع آذان الديكة أيقظته المشاجرة.

في سكرة النوم سمع صوته الغاضب. أطل من الكوخ، فرأى في العتمة شبح جمل ينازع جمله ويهاجمه بالأنياب. خرج وهو يفرك عينيه. الأبلق. إنه الأبلق، بقدّه وقامته وقوامه، تمكّن من غريمه ولحق فأدمى رقبته وحنكه الأيسر. في الصباح عثر على عضّات أخرى متناثرة على جسم الجمل وجرح بليغ أسفل الصدر.

بعد يومين، وصل أحد الرعاة وقال إن «دودو» بعثه في أثر المهري الهارب. كان فمه خالياً من الأسنان. وبرغم ذلك لا يتوقف عن الضحك ومضغ التبغ. جلس تحت نخلة واطئة ظليلة في الحقل وأخرج صرّة من جيبه وقال:

ـ الحمد لله الذي أعطاني عمراً حتى رأيت التبغ برخص التراب. هل تصدّق أن فلاحاً في مدخل الغابة أهدى لي حفنتين مجاناً!؟

ضحك مستلقياً إلى الوراء، فظهرت لثته المهجورة ثم أكمل:

ـ الحرب جاءت بالجوع ولكنها ضربت سعر المضغة. هذا من فضل الحرب. في السواحل لا يدخنون الآن سوى التبغ الملفوف. هل جربت التبغ الملفوف؟.

ـ أنا لا أمضغ التبغ.

ـ آه. اعذرني فأنا رجل مدمن. المضغة فوق كل اعتبار. أستطيع أن أجوع، ولكن الحياة بدون مضغة مستحيلة. أقتات الأعشاب في الصحراء شهوراً وسنوات ولكن لا أعيش يوماً واحداً بدون مضغة. أمثالي يرتكبون الجرم إذا لم يحصلوا على التبغ. هل سمعت بقصة المهاجر الذي رفض الفلاحون أن يعطوه تبغاً. قتلهم الثلاثة. قتل ثلاثة رجال بسبب ورقة تبغ. إنه الجنون. أنا أفهم ذلك.

ثم عاد يضحك.

في الليل، حدّثه عن الجوع في الصحراء. قال إن عائلات بأكملها ماتت ودفنت في مقابر جماعية، خاصة في السنة الأخيرة. في الصحاري الجنوبية نزلت أمطار شحيحة، فحلّ الجدب مبكراً مع الصيف القاسي. الناس نزحت عن المراعي الخصبة في الشمال هرباً من رائحة البارود. الأطراف الشمالية للحمادة الحمراء خالية هذا العام.

سأله أوخيّد:

ـ هل هناك ما يشير إلى أن الحرب ستنتهي؟.

ـ الأحداث تشير إلى العكس. منذ أسابيع طاف رسل المجاهدين لتجنيد المقاتلين، يريدون دعم صفوفهم في الكفرة وبعض مناطق الجبل الأخضر.

سكت. عم الصمت. قال بنبرة كئيبة:

ـ لا يبدو أنها ستنتهي في القريب.

سرحا في أفكارهما. سرحا بعيداً. ثم قال الراعي ضاحكاً:

ـ ولكن مزيّة الحرب أنها أطاحت بسعر التبغ. أنا لا يهمني الجوع ولكن بوجود المضغة أضمن أني لن اضطر إلى القتل كما فعل المهاجر...

ضحك، فقاطعه أوخيّد:

ـ ولكن دعنا من هذا الآن. حدثني عن الأبلق. كيف حال الأبلق هناك؟.

ـ أووه. إنه ليس جملاً. إنه إنسان في جلد جمل. طول عمري قضيته مع الجمال ولكني لم أر مثيلاً له. عندما جاء به «دودو» أضرب عن العشب ورأيت الحزن في عينيه.. حزن الحنين. من طول معاشرتي للبعير عرفت أنه يحنّ إليك. هذا ما تتميز به السلالات النادرة. هل تدري أنه رفض حتى أن يبرك؟ ظل واقفاً على ساقيه طوال الأيام الماضية. قيدته في مرعى مجاور فقطع القيد وعاد إلى هنا. أدركناه بعد مطاردة قاسية وأعدناه إلى المراعي. في هذه المرة صنعت له عقالاً من الليف بدل عقال الوبر. سامحني في قسوتي ولكن لم أجد حلاً. هل تعلم ماذا فعل بعقال الليف عندما عجز عن قطعه بقوة الساقين؟ مضغه بأنيابه حتى انقطع القيد وفرّ، فلم ندركه أبداً.. هذا ليس جملاً. إنه إنسان...

قال أوخيَّد في الظلمة:

ـ قلت له إن الصبر هو التعويذة الوحيدة ضد البلاء. أضاع الحجاب..

ـ لم أفهم.

همهم أوخيّد بكلمات غير مفهومة، فقال الراعي بلهجة خفيّة:

ـ لا أعرف كيف طاوعتك نفسك فرهنته. مهري مثله لا يرهن أبداً.

أجابه أوخيّد في سرّه: «العيال. المرأة. ماذا تعرف عن العيال وعن المرأة؟».

وحسد الراعي الطليق الذي لا يفكر إلا في حفنة التبغ. كان طليقاً مثله لا يفكر حتى في التبغ. يتنقل مع الأبلق في صحراء الله الواسعة. ولكن هيهات. جاءت حواء ففرقته عن القبيلة وعن الأبلق. المرأة. المرأة. ألم يقل الشيخ موسى أنها هي التي طردت آدم من الجنة؟.

- ١٩ -

عاد مرة أخرى بعد أقل من شهر فجاء في أثره نفس الراعي.

في عودته الثالثة، ذهب به إلى الفقيه ليكتب له حرزاً، فقال الفقيه بعد أن سمع قصته:

- أنا لا أستطيع أن أمحو الذاكرة. ابحث عن غيري.

نصحوه بالسحرة الزنوج، ولكن العرافة التباوية التي هاجرت قبل المجاعة بوقت قصير كانت آخر من تعاطى الرقية في الواحة. لم يطمع في اصطياد سحرة «كانو» المرافقين للقوافل لأن الحرب ضربت حركة القوافل نفسها.

اختلس حفنتين من الشعير في غياب «أيور»، وقرر أن يذهب بنفسه إلى «دنبابة». اختلى به في الطريق وبدأ في تأنيبه:

- ألا تعرف أنك تتعبني؟ أنسيت ما قلته لك؟ لقد اتفقنا أن فراقنا مؤقت، ولكنك نسيت الحجاب.. نسيت الصبر فأضحكت علينا الناس.

تلألأت عيناه بالبلل، ولكن أوخيّد لم يرحمه:

- تجري ورائي كالكلب. الكلاب فقط تفعل ذلك. افهم أن هذا لا يليق بالفرسان.

ثم خفف من لهجته:

ـ سوف تنتهي الحرب قريباً، وتعود حياتنا كما كانت. لا شيء يدوم. اصبر. لا شيء يستقيم بدون صبر وبدون حيلة. سبق واتفقنا.

أخرج له المفاجأة. طرح الشعير على غطاء أمام المهري في العراء. ولكنه أشاح بوجهه. تأفف وتعلق بالأفق.

عرف أوخيّد أن الخطاب لم يرق له. ثم بدأ يمضغ دون أن يجتر شيئاً، فاستحلب زبداً ناصعاً منفوشاً. لوّث وجهه وذراعيه بنثار الزبد فعـرف أنه يغلي. إذا أكله الغضب والانفعال تقيأ كتل الزبد.

أحكم الوثاق حول قائمتيه الأماميتين. ثنى كل ركبة على حدة وقيّدها بحبل الليف حتى لا يفلت في الليل ويهاجم الجمل الآخر. ففي كل مرة يعود فيها من منفاه يتجه إلى غريمه وينهشه بقساوة.

تركه وعاد إلى الأمتعة. توسد ذراعه وحاول أن ينام.

ليلتها أوخيّد لم ينم.

طوال الليل أنصت لانفعالات الأبلق من خلال مضغه العصبي للفراغ والزبد الأبيض. فـ. . . قرر أن يستردّه بأي ثمن.

لم يتخذ القرار فجأة إذ أنه لم يعد يستطيع أن يصبر على الفراق. بل إنه استغرب كيف سمح لنفسه أن يفعل ما فعل. وأدرك الآن، وهو يستلقي في العراء الأبدي، أنه لن يغفر لنفسه الخطأ إذا لم يستردّه في هذه الرحلة. فالبلاء الذي وحّد بينهما في الماضي وختم على حياتهما برباط أبدي أقوى من المجاعة التي تحاول اليوم أن تقطع هذا الرباط.

إذا كانا في رحلتهما الخالـدة تلك ـ من مضارب القبيلة إلى «قـرعات ميمون» ومن «القرعات» إلى البئر، ومن هاوية البئر إلى فوهته مرة أخرى ـ

قد اشتريا حياتهما بذلك الثمن القاسي، إذا اشترياها بألم لا يعادله إلا الموت، إذا اشتريا الحياة بالموت وبعثا من جديد، فكيف يسمح اليوم أن يخون هذه الهبة الإلهية التي ربطت مصيرهما، ويبيعها بسبب العيال أو المجاعة؟ ماذا يمكن أن يسمّى هذا غير الخيانة؟ كيف أعمته المرأة إلى الحد الذي أعماه عن رؤية عمله البشع؟ نعم. هي. المرأة. لولاها لما تجاسر. لولاها لما سها عن الإيفاء بالنذر لـ «تانيت». لولاها لما حلّت اللعنة التي أعمته عن رؤية فعله. لولاها لما جاء الولد إلى الدنيا. الولد الذي يجيء كي يطوّق عنق الوالد ويديه ورجليه بقيد أقوى من الحديد. لا يطوّق أطرافه فقط وإنما يشلّ عقله ويحجب قلبه. الأبناء حجاب الآباء. الأبناء فناء الآباء.

«حياة العاشقين في الموت، ولن تملك قلب الحبيب إلاّ بفقدان قلبك».

جلال الدين الرومي

«المثنوي»

- ٢٠ -

من أفواه الغرباء تسمع العجب.

في البداية، قال له:

- عرفت أن هذا سيحدث. رأيت هذا في عينيك وفي عينيه.

- البلاء صنع منا مخلوقاً في اثنين، فأرجو ألا تستغرب قولي: ليس من حقّي أن أبتعد عنه.

- لماذا لم تقل ذلك عندما لدغك الجوع؟.

- لست أنا الذي جعل من بكاء الأبناء سبباً لجنون الآباء.

- لست أنا أيضاً..

- الأمر بين يديك. لن تنسى أنه أخرجني من البئر. وهبني الحياة. ضع نفسك مكاني.

سكت طويلاً ثم قال:

- غداً سأبعث لك بجوابي.

وفي الغد سمع العجب.

لم يسمعه من فمه مباشرة، ولكنه بعث به مع رسوله. نفس الراعي

المرح ذو الفم الخالي من الأسنان. جلس يخلط شاي العشية، وقال ببلاهة الرعاة:

ـ يعيد لك الأبلق بشرط أن تطلّق قريبته.

هكذا بدون حياء. وبدون إيماء. لم يكلّف الراعي نفسه عناء الإيماء. لم يظن أنه أبله إلى هذا الحد.

في البداية لم يفهم أوخيّد، فأعاد الراعي توصية مخدومه مثنى وثلاثاً.

قال أوخيّد بعد صمت طويل:

ـ وما علاقة هذا بهذا؟.

ـ ما دام يشترط فلا بد أن هناك علاقة. لا يعلم بنوايا الغريب إلا ربّي!.

ـ وهل يضع المسلم شرطاً هو أبغض الحلال في الشرع؟.

ـ إذا وجد السبب فلا مكان للإسلام ولا للشرع.

ـ لو كانت بندقيتي معي لما جرؤ أن يبعث لي بهذا الشرط.

ـ حتى لو كانت بندقيتك بين يديك فلن تفعل شيئاً. جنّد العسس بماله وجاء له الذهب بالخدم والحشم والعبيد والرعاة. هو أقوى منك والأبلق بين يديه.

أعطاه الراعي فنجان الشاي، وقال بنفس الخشونة:

ـ ما كان ينبغي أن ترهن له هذه الجوهرة. لو رهنتها لي أيضاً لفكرت في حيلة شيطانية كي أسلبه منك.

ابتسم بغموض ورشف الشاي:

ـ تتعامل مع الغرباء كأنهم أقران. لا يتغرّب المرء بلا سبب. في صدر الغريب دائماً يرقد السرّ.

لم يرشف أوخيّد من الشاي. ترك الفنجان مغموراً في الرمل، وأنصت لفقاعات الرغوة وهي تنقشع وتتلاشى. صوتها كان واضحاً من فرط الصمت.

قال الراعي:

ـ الحق أنه أخبرني بشيء آخر لم أر ضرورة في أن أخبرك به.

شجّعه أوخيّد:

ـ تستطيع أن تتكلّم، فلن يدهشني شيء كما أدهشني شرطه.

ـ من الغريب يأتي الغريب. لا تستغرب.

رشف من الفنجان بصوت مزعج قبل أن يكمل:

ـ يريد أن يتزوجها على سنّة الله ورسوله.

وجه له أوخيّد نظرة استنكار، فأسبل الراعي جفنيه. قال متظاهراً بالاعتناء بالكؤوس:

ـ يتزوج قريبته. قال إنه سيفعل ذلك على سنّة الله ورسوله. ليس في ذلك أي عيب.

صاح أوخيّد:

ـ ولكني أحبها. من قال له إني لا أحبّها؟.

ـ هو أيضاً يحبّها. هكذا قال. والأقربون أولى بالمعروف. هكذا قال أيضاً.

ـ لو كانت بندقيتي معي..

ـ لن تفعل شيئاً. الحرس والعسس. الخدم والحشم. اشترى كل شيء بماله.. بذهبه.

ـ لعنة الله عليه وعلى ذهبه. وهل يظن أنه يستطيع أن يشتريني أنا ويشتري زوجتي بذهبه؟.

ـ لقد اشتراك في اليوم الذي رهنت فيه الأبلق. أمّا زوجتك فيستردّها منك. هو أقرب لها منَك. صلة الرحم. يستردها منك ويعود بها إلى آير. على سنة الله ورسوله. ليس في ذلك ما يمكن أن يغضب الله أو العباد.

ـ هل قال إنه سيعود بها إلى آير؟.

ـ نعم.

ـ وماذا عن ولدي؟ الولد ولدي.

ـ سيعيش بين يديه مثل ابنه، في أرغد عيش، إلى أبد الآبدين. وإذا شئت استرددته عندما يكبر. هكذا قال. لم يهمل شيئاً في الوصية كما ترى. ألم أقل لك إن الغرباء يخفون الأسرار؟.

ـ سأقاتله، وسأسترد الأبلق بالقوة. إذا غاب الحياء فالقوة هي قانون الصحراء. أنت تعرف.

ـ لن تنفع القوة. هو أقوى منك بماله ورجاله.

ـ لا تنسَ أن لديّ قبيلة.. أقوى قبيلة.

ـ قبيلتك شتتها الطليان. وهو يعرف ذلك. ويعرف أيضاً أن المرحوم والدك لم يكن راضيا على زواجك من قريبته. ردد على مسمعي تلك اللعنة: «لا بارك الله لك فيها». لا أدري من أين سمع. ولكن لا شيء يخفى حتى في الصحراء كما ترى. ألم أقل لك إن في صدره يرقد السرّ؟.

بعد لحظات، سمع أوخيّد عجباً آخر.

حجبت الظلمة امتداد الأفق، فقال أوخيّد:

ـ فاتني أن أسأله عن صلة قرابته بها. فاتني أن أسألها أيضاً.

سارع الراعي:

- ابنة عمّه!.

- ابنة عمّه؟.

- نعم. عشقها منذ أن كانا طفلين. اختلف الأبوان فافترقا. ومن الطبيعي أن يرفض أبوها زواجها منه. وعندما مات الأب وهاجرت قبيلتها إلى «آزجر» كان «دودو» أسيراً عند قبائل بامبارا. ذهب في غزوة لسلب الذهب فوقع في كمين. ولكنه استطاع أن يدبّر طريقة للهرب بعد سنوات. فعاد إلى آير ووجد أنها قد هاجرت. جمّع أتباعه وأغار على «بامبارا» وغنم الذهب اللعين. باعه في غدامس وأنت تعرف بقية القصة. قال إن هدفه من الحصول على الذهب هو تأمين المهر. هذا جانب من السرّ. أمّا ما خفي فالله به أعلم.

تمايل أوخيّد كمجاذيب الطريقة. قال مأخوذاً:

- حقاً لا يتغرّب المرء بلا سبب. حقاً أن في صدر الغريب يرقد السرّ.

- ٢١ -

لم يمض على عودته إلى الواحة أسبوع واحد حتى التحق به الأبلق.

جاء هذه المرة في أسوأ حال. لم يره بهذه الحالة قبل اليوم. ازداد ضموراً حتى برزت ضلوعه. غارت العينان في المحجرين. القائمتان الأماميتان غائرتان بجروح عميقة سببتها قيود الليف.. أخشن أنواع الليف.. الليف الوحشي. وبدل سيماء القبيلة (+)، وسموه على فخذه الأيسر بسيماء قبائل آير (+ ١١).

هذه إشارة من دودو. دودو داهية. هذا استفزاز. يريد أن يقول له إن المهري لم يعد ملكه. ومجرد إطلاق الجمل في أثره إشارة. يريد أن يحرق قلبه. إذا غاب الحبيب سهل عزله. سهل حجبه عن القلب. البعيد عن العين بعيد عن الخاطر. إذا رأيت المحبوب استيقظ الشوق. هذه حيلته. هذه حيل الغرباء. الراعي على حق. قلوب الغرباء مأوى السرّ. عندما ودّعه قال له: «ما كان ينبغي أن ترهن مثل هذا المهري لدى غريب. فمثله يخفى عن أعين الغرباء. ولكن ما فات مات»، وبصق لعاب التبغ على الأرض ومضى كي يلتحق بالإبل.

ظنّ أنه لن يرى هذا الراعي مرة أخرى. ظنّ أن الرجولة تكفيه كي يغادر «دنبابة» إلى الأبد بعد شرط مخدومه المجنون. شرط مخجل مجنون من رجل مجنون غريب المزاج. عندما جاءه أول مرة في الواحة ونزل ضيفاً

عليه لم يلحظ شذوذاً لا في هيئته ولا في تصرفه. كل ما هناك أنه يرتدي، إلى جانب قناع القماش الرمادي، قناعاً آخر أكثر قتامة. رأى في عينيه القناع الملفوف على قلبه. لا يدّعي الخبرة بقلوب العباد، ولكن صمته وكآبته ووجومه يفضحون قناع القلب. العيون مرآة القلب. تخفي الوجه بالقناع ولكن لن تخفي ما ينطق به القلب في العينين. وبرغم أنه لم يترك أثناء تأدية طقوس التحية مع أيور، المجال لأي انفعال مشبوه إلّا أن أطراف أصابعه أشارت إلى سرّه. كان يحرث بسبابته الأرض ويرسم المثلثات المقدسة حيناً ثم يعود فيمحو وجه «تانيت» بعصبية. في حين تسري الرعدة في أطراف الأصابع. ولا يدّعي الآن أنه يستطيع تأويل هذه العلامة الخفية في ذلك الوقت. ولكنه يستطيع أن يفعل ذلك الآن فقط بعد أن تطوّع بنفسه وأذاع السرّ. حقّاً ما أبعد أسرار الغرباء. ما أقوى الغرباء. أولئك الذين يخفون أسراراً دائماً أقوياء.

في ذلك اليوم، حاول أيضاً أن يمتحن قوته، فقرر أن يهجر المهري إلى الأبد. ففي الليل فكّر أنه إذا لم يفعل ذلك لما ردّ على إهانة دود المجنون. إذا لم يصبح رجلاً فإن العار سيلحقه إلى الأبد. الصحراء لا ترحم. وإذا لحقت لعنة العار أحداً في الصحراء فإنه يمحى من ذاكرة الناس. ليته يمحى، ولكن يكتب عليه وعلى نسله الاحتقار. والاحتقار في ناموس الصحراء أسوأ من المحو، أسوأ من الفناء. الاحتقار هو الموت كل يوم، كل ساعة، كل لحظة. فيموت الرجل في حياته مئات وآلاف المرات بدل الميتة الواحدة النهائية. والرجل الحقيقي، الرجل النبيل، يختار الميتة الواحدة بدل ألف ميتة. الألف ميتة متروكة للعبيد، وربما للأتباع أيضاً، ولكن ليس للنبلاء.

في عتمة الفجر، ثبّت السرج والأثقال على جمل الحرث، وتسلل قبل أن يتضح الخيط الأبيض من الأسود. نزل وادياً قاحلاً، فداس على رقبة الجمل يحثّه على الجري. لحظتها سمع العواء الأليم:

ـ آ ـ آ ـ آ ـ ع ـ ع ـ ع . . .

قطع مسافة طويلة، ولكن الشكوى، اللوعة، الفجيعة، أدركته في الخلاء. الفجيعة وحدها تصنع من رغي الجمال عواء الذئاب. الأبلق يعوي دائماً عندما يشكو. وهو لا يشكو إلاّ إذا بلغ الألم مداه. إذا بلغ القلب. فليس ثمة في الدنيا مخلوق ينافس الجمل في الصبر على الألم الجسدي. وليس في الدنيا مخلوق أضعف من الجمل في تحمل ألم القلب. وقد عرف هذا السرّ بمعاشرته الطويلة للأبلق.

والآن، لمّا سمع عواء الفجيعة، انشقّ قلبه إلى شطرين، وحاول أن يخنق الشرارة في قلبه. . . شرارة الألم. ولكن هيهات. إذ فاض قلبه بعد قليل بالنار. لدغ فخذ الجمل بالسوط يحثه على الإسراع في عدوه. أراد أن يبتعد ويغيب بأسرع وقت حتى يختفي الصوت ويطفىء الصدى، ولكن مع فيض الألم تدفقت الذكريات، فرأى صداقتهما في الزمان الأول، قبل أن يولدا، قبل أن يكونا نطفتين في رحم الأمهات. قبل أن يكونا خاطراً، عاطفة في قلوب الآباء. قبل أن يكونا رغبة تسيطر على الجسد. قبل أن يكونا هباء في الفضاء الأبدي. عندما كانا صوتاً للريح. صدى لأغنية، نواح «امزاد»(*) بين أنامل حسناء، زغرودة حوريّة في الفردوس. نعم. زغرودة إلهية لحوريّة رحيمة في ظلمة البئر.

كانا شيئاً واحداً قبل أن يكون أي شيء، فكيف يستطيع الآن أن يتخلّى عنه ويلبس عتمة الفجر هارباً كاللص؟ كيف ينزعه من نفسه كما ينزع الخاتم من الإصبع ويلقي به بين أيدي الأوباش والغرباء في صحراء «دنبابة»؟ كيف يجرؤ ويرتكب هذه الجريمة لمجرّد وجود المرأة والولد وشيء سخيف اسمه العار في الصحراء القاسية؟ كيف يتخلى عن نصفه الإلهي ويقايضه بوهم الدنيا؟ ومن هي المرأة؟ إنها الوهق الذي خلقه إبليس

(*) امزاد: آلة موسيقية وترية تشبه الكمان.

كي يجر به الرجال من رقابهم. ومن هو الولد؟ إنه اللعبة التي يتلّهى بها الأب معتقداً أن فيها الخلود والخلاص في حين تحمل فناء عمره وخراب ماله. وما هو العار؟ إنه وهم آخر اختلقه أهل الصحراء كي يستعبدوا أنفسهم ويكبلوا رقابهم بمزيد من القيود والحبال.

وإذا كان العار هكذا فإن النبل هو الحرية، هو الإخلاص لرفيق عرفه في الفناء وعبر به ملكوت الصحراء طوال هذه السنوات. والنبل هو الذي يحتم عليه أن يضحّي بالوهق واللعبة والوهم ويختار الأبلق ليواصل معه الرحلة في ملكوت الخلاء.

شدّ اللجام فجأة، واستدار على عقبيه.

استقبله دودو مع الشروق، يرتدى قناع الكتان، ويحاول أن يخفي قلبه أيضاً بالقناع السرّي. ولكن عينيه فضحتا محاولته. رأى فيهما سخرية الواثق من كسب الرهان. برقتا في لحظة بابتسامة ذات معنى ثم اختفت الابتسامة. كرهه في تلك الحظة. الإحساس بالكراهية كان خاطفاً أيضاً مثل الابتسامة الخفية. واستغرب أنه لم يحس نحوه بكراهية قبل الآن. غضب فقط عندما قصّ عليه الراعي الوصية ولكنه لم يكره ولم يحقد. ربما لأن الراعي الحكيم نجح في إقناعه بأن الخطأ يكمن في «الرهن». حدّثه طويلاً عن المعنى السحري لهذه الكلمة بين التجار. قال له إن دودو نفسه وقع في مصائد كثيرة نصبها لـه تجّار تمبكتـو وأغاديس وغـدامس قبل أن يهتـدي ويعرف معناها.

الآن هو أيضاً يعرف معنى هذه اللعنة. وهذه المعرفة هي التي امتصت حقده على دودو ليقلبه على رأسه. فهو المسؤول عمّا حدث. المجـاعة مسؤولة. آيور مسؤولة. الولد. الطليان. الصحراء. يا ربي. عندما يدبّر القدر أمراً فإنه يجعل كل شيء مسؤولاً. يجعل كل شيء عـدوّاً. الناس والأشيـاء والصحراء. هـذا من شيم القدر الأعلى. عنـدمـا يقـرر يضـع

المسؤولية على عاتق الجميع لكي لا يكون أحد مسؤولاً. عندما يشترك الجميع في جريمة فليس ثمة مجرم. القدر أمهر من يمحو الأثـر، يوزع الخطيئة لكي يستحيل الاهتداء للفاعل الحقيقي.

هذا الإحساس جعله لا يكنّ حقداً لدودو. جاء يلاحق ابنة عمّه التي أحبها منذ الصبا وحالت بينهما تدابير الدهر، فهل يملك الحق في أن يدينه؟ هل يعاديه ويقاتله لو كان هو مكانه؟.

قال دوُد:

ـ عدت كي تطمئن على الزرافة؟.

استغرب أوخيّد:

ـ زرافة؟

ـ نعم. هكذا سميته. الزرافة أجمل حيوان في آير.

ثم طلب منه أن يسمح له ليلقي عليه نظرة. هز دودو رأسه وردد:

ـ هذا كله لن يفيد. ستضطر للعودة إليه مرات ومرات.

لم يغضب أوخيّد ولم ينطق، فتمتم الغريب:

ـ هو في المرعى بالوادي الغربي.

الآن فهم. نسيم الصباح هبّ من الشرق. فلم يكن صعباً على الأبلق أن شم رائحته عندما انطلق هارباً.

- ٢٢ -

كما تنقشع أحلام الليل بالنهار، كما تبتلع أشعة الشمس قبس الفجر، تبدد القسم بمجرد أن رأى دودو متدثراً بعباءته الزرقاء في المدخل. عرف لحظتها أن الإنسان مجبول على ما رضعه في حليب الأم. عرف أن من الصعب أن ينزع الوهق واللعبة والوهم من رأسه مرة واحدة إلّا إذا أصبح إنساناً آخر مرة واحدة أيضاً. الإنسان رهين ما كسب كما هو سجين البدن. هكذا يروق للشيخ موسى أن يردد. فهل يعني بذلك أن الإنسان يعجز أن يبدّل نفسه طالما يعجز أن يغير بدنه؟ ولكن إذا كانت المرأة وهقاً والولد دمية والعار وهماً فهل يرضى بأن يسلم لهم نفسه ويبيع الأبلق؟ هل يرهن نفسه في قبضتهم بمجرد أن كل الناس تفعل ذلـك ويتخلّى لهم بالمقـابل عن صديق الدنيا والدين؟.

هل يرتكب هذه الخيانة دون أن يحتقر نفسه؟.

لم يكد يفيق من حسباباته وهو ينزل الوادي حتى هرع المهري إليه، مقيّد القائمتين الأماميتين، يلوك الزبد، وينز العرق من جسمه. في عينيه حـزن.. الحزن الـذي يعرفه جيداً. أوقف جمـل الحرث بعيـداً، وهبط المنحدر. تعانقا.

ولكن عناق الوداع دائماً أقسى.

تعمّد أن يقسو عليه:

ـ هل أنت ذكر أم أنثى؟ ما تفعله لا يليق بالمهاري. ليس رجولة. ليس فروسية. أتفهم؟ اصبر. مائة مرة قلت لك اصبر. هذا هو الحجاب إذا أردت أن تعيش في الصحراء. الصبر صلاة. الصبر عبادة. هل نسيت رحلتنا إلى «قرعات ميمون» هل نسيت رحلتنا إلى «آوال»؟ أنت تنسى بسرعة. هذا عيبك. هذا يجر متاعب في الصحراء.

قلب الجمل لم يلن. ظل القلق يقفز من مقلتيه الرائعتين. مقلتاه الناطقتان كعيني غزال.

ظلّ يناجيه ويداعبه ويعزيه حتى انتصف النهار. وما أن انصرف حتى اشتكى بصوت كأنين المرضى.

كل الأصوات التي سمعها من الأبلق لا تشبه أصوات الجمال الأخرى.

- ٢٣ -

وها هو يلتحق به.

جاء مثخناً بالجراح، يحمل وصيّة جديدة من دودو الداهية.. وصيّة قاسية. هذه الجراح وهذا البؤس هما الوصية الجديد. هذا الهيكل العظمي التعيس هو رسالة دودو. تنبيه.. إنذار.. إشارة. آه من الإشارة. ما أكثر ما يخشى هذه اللغة.. اللغة الخفية التي تعلمها من الصحراء. الصحراء هي التي علمته أن يخافها. لأنها لا تنطق بصريح العبارة. لأنها تخفي المجهول. لأنها المجهول. والمجهول لا يومىء عبثاً. المجهول لا يعرف المزاح. المجهول هو القدر. ولغة القدر مميتة.

فهل يريد الغريب أن يقتل الأبلق أم أن هذا مرحلة جديدة من الابتزاز القاسي؟ هل ينوي أن ينتقم من الحيوان البريء مقابل مكابرته ورفضه التسليم بتطليق قريبته أم أن هذا التعذيب هو أسلوب لتطويعه ودفعه إلى التسليم؟.

مهما فكرت، ومهما حكمت العقل، ومهما سرحت في التأويل، فإن في جعبة الغرباء أسراراً أخرى. مهما كنت عالماً، ومهما وهبت من ذكاء فإن سلاحهم أقوى لأن المرء لا يتغرب بلا سبب. الراعي الحكيم على حقّ.

في تلك المرّة عندما جاء الأبلق ممزقاً، أعجف، بارز العظام رأى في

عيني أيور لأول مرة طوال عشرتهما احتقاراً. لا. لا. لم يخطىء. نظرة احتقار واضحة. لم تخفها. لم تحاول أن تخفها. تعمدت ألا تخفيها عن قصد. فما معنى ذلك؟ هل استيقظت الغيرة؟ غيرتها من الأبلق ليست وليدة اليوم، فهذا الفرس البهي الذي استكمل به فروسيته قبل الزواج فساهم في تعلقها به أصبح، بعد الزواج، ضرّة وغريماً، بل عدواً. لم تجرؤ على إعلان مشاعر ما نحو الحيوان صراحة ولكن لم يكن صعباً عليه أن يفهم هذا الموقف من إيماءاتها الخفية.

قالت له بعد العشاء عقب الزواج بشهور وهما ما زالا يقيمان في الحمادة:

ـ لم أر في كل الصحراء نساء غيورات مثل نساء قبيلتكم. أتدري أن «تانزيديرت» قالت لي: «احذري. الرجل الذي يحب مهريه، كما يفعل أوخيّد مع أبلقه، لا يعوّل عليه. هو حقّاً أجمل مهري في الصحراء، ولكن إذا زاد حب الفارس لفرسه فليس من حق الزوجة أن تأمن هذا الفارس. فقلبه إمّا مع فرسه وإما موزع بين امرأته وفرسه وهذا أسوأ. والمرأة ما لم تحتل مكان المهري في قلبه فإنها تبقى مهددة بأن تفقده يوماً». فهل سمعت بمثل هذا الهراء؟.

ضحك يومها، وقال لها أن «تانزيديرت» امرأة حكيمة ولم تقل سوى الحق. ضحكت أيضاً، ولكنها لم تغفر له هذه الدعابة.

وما أن بدأت المجاعة حتى وجدت الفرصة في التخلص من المهري، ولمّحت أكثر من مرة بذلك. ثم لم تستطع أن تصبر على نواياها فصرّحت بذلك علناً. غفر لها، وقتها، لأنه رأى ما فعله بهم الجوع، وقال لنفسه إن من حق الأم أن تجنّ وهي ترى وليدها يبكي جوعاً.

وغيرتها الآن ليست بسبب تعلقه بالأبلق، ولكن لأنها رأت صراعه منذ أن رهنه لقريبها. رأت الكرّ والفرّ بين «دنبابة» والواحة، وتابعت الرحلات إلى

هناك والعودة. ورأت في ذلك خزيّاً يستوجب الحياء. ونظرتها اليوم قالت له: «استح! ألا تخجل؟». وهدف هذا التوبيخ الخفي ليس غيرة الزوجة من فرس الفارس ولكن رأت في عناده وصراعه وتمسكه بالحيوان خطراً عليها.. هي والولد. فهمت ذلك بحاسة المرأة، بوحي المرأة. وهل ثمة أكثر من المرأة حساسية ووحياً عندما تشك؟ ونظرة اليوم إنذار.. تحذير.. تحدّ.. كراهية. نعم. في الاحتقار برقت الكراهية. وماذا يمكن أن تعني الكراهية إلى جانب الاحتقار؟ في الاحتقار كل الرذائل. الاحتقار أقوى وأقسى من الكراهية. الاحتقار إهانة. هذا ما رضعه من ثدي الأم. من ثدي الصحراء أم أن.. أوه، يا ربي! أم أنها تحب ابن عمّها حقّاً وتتعمد أن تهينه حتى تفوز بورقة الطلاق؟ هذا الهاجس ضاعف شقاءه، وتذكر أنها أخفت عنه صلة قرابتها به طوال الوقت. لماذا لم تخبره بالقصة كلها إذا لم تكن تخفي سرّاً؟ أوه، يا ربي! المرأة. المرأة. ها هو الوهق الفظيع يضيق حول الرقبة، ها هو يكتم النفس. ها هي الظلمات تزحف وتبتلع ضوء النهار. في تلك الليلة، بكى أوخيّد.

لم ينم. وفي قلب الليل، وجد أن خيطين حارقين من الدموع يسيلان على وجنتيه.

لم يصدّق أنه يبكي أو يمكن أن يبكي في يوم من الأيام. سليل اخنوخن العظيم(*) يبكي في فراشه كأتعس أنثى. أوخيّد الذي تعاند في صباه مع قرين أيهما يصمد أطول مدة وهو يمسك بجمرة موقدة. فاحت رائحة الشياط من يديه دون أن يتخلى عن قطعة النار حتى انهار خصمه وألقى بقطعته وهو يصيح. أما هو فلم يصرخ ولم يبك برغم أنه طفل لم يبلغ

(*) إخنوخن: زعيم آزجر. شيخ قبيلة امنغساتن في القرن التاسع عشر. لعب دوراً رئيسياً في صدّ الغزوات الفرنسية التي كانت تستهدف التوغل في الصحراء الكبرى والسيطرة على تجارة القوافل. مات عن عمر تجاوز المائة عام.

العاشرة. قبلها، في السابعة، عاقبته أمّه فأطلقت عليه الزنجية كي تملأ فتحتي أنفه بسائل الفلفل الرهيب فصبت عدة ملاعق. غاب في الظلمات وانسدّ النفس ولكنه لم يبك.

حرث الصحراء معلقاً في ذيل الأبلق، وقفز في الهاوية الظلماء، ومات وعاد إلى الحياة، ولم يبك.

وها وهو يبكي الليلة دون أن يستطيع أن يوقف نفسه عن البكاء، كأن الذي يبكي ليس هو وإنما إنسان آخر ينام بجواره، ينام فيه ويشق عصا الطاعة عليه، يتمرّد على حواسه وإرادته. إنسان آخر يرى نشاطه وأفعاله دون أن يراه. ما معنى هذا؟ هل حدث هذا لإنسان في الصحراء من قبل؟

انسل من الفراش، وخرج من الكوخ.

في الخارج، شق قبس الفجر ظلمات الواحة، ولكن الديكة غفلت عن إعلان الميلاد أو ربما تعمدت أن تكتم السرّ. فرقة الجنادب وحدها واصلت أغاني السهرة.

الأبلق أيضاً قضى الليل ساهراً. وجده منتصباً بقامته المديدة، متجهاً برأسه نحو الشرق، بائساً، صامتاً، كئيباً، يشاهد ميلاد القبس، في حين برك جمل الحرث في الطرف الآخر من الكوخ، بجوار نخلة حدباء كثيفة، يجتر ببلادة ولا مبالاة. قارن في لحظة بين الجملين، فأدرك كم يبدو حزن الأبلق مقدساً في هذا الوضع، في هذا الوقت المبكر من الصباح. وكم يبدو الجمل الآخر غبيّاً وبشعاً في بلادته ولا مبالاته وخلوّ باله من الهم. ما أبشع المخلوق عندما يخلو قلبه من الهمّ. الحزن وحده يزرع القبس الإلّهي في القلب. هل يبدو الإنسان هكذا أيضاً؟ الشيخ موسى يقول دائماً أن الله لا يحب إلّا المعذبين والمبتلين من العباد، بل هو لا يبتلي إلّا من أحب. شيوخ الطريقة في الواحة أيضاً يرددون شيئاً مشابهاً.

اختلس ثلاث حفنات من الشعير من زاوية الكوخ، وامتشق البندقية، ووضع الرسن في خشم المهري. قاده عبر طريق عين الكرمة.

في الطريق، وجد نفسه يردد كأنه يغني: «الصبر صلاة. الصبر عبادة. الصبر هو الحياة». طمأن نفسه وهو يردد ذلك كي يسمعه الأبلق. قال في نفسه أنه يوجه أغنيته إلى المهري المعذّب، ولكنه في سرّه يعرف أنه يقول ذلك لنفسه هذه المرة. الإنسان الآخر الذي بكى في الليل واكتشف أنّه يقيم في بدنه هو الذي يرتّل هذه التميمة، أما هو فـأداة للانفعـال وتنفيذ الأفعال، أصبح، منذ البارحة، يده ولسانه وعينيه. العينان اللتان بكى بهما هما عيناه. فمن هو؟ ومنذ متى أقام في الصدر؟ منذ الميلاد؟ أين كان طوال هذا الوقت؟ كان نائماً؟ لماذا لم يستيقظ إلا البارحة؟.

عبر أحراش النخيل. جاور التلال الرملية الجنوبية. أناخ الجمل، وبسط قدامة خرقة خيش. أخرج صرة الشعير، ونثرها فوق الخرقة، ولكن الأبلق شمخ برأسه في كبرياء، وتعلّق بأفق المتاهة.

انبثق أول خيط ناري من أشعة الشمس.

جلس على رؤوس أصابعه، في المواجهة، وراقبه طويلاً، متكئاً على البندقية.

ثم لا أحد يعلم، ولا هو نفسه يعلم، كيف رفع فوهة البندقية وسددها صوب رفيقه. نهض عن الأرض ببطء كأنه ينتزع نفسه، وقرّب الفوهة من رأس الأبلق. تقدّم خطوة، خطوتين حتى لامست الفوهـة جبين الجمل. وضعها بين عينيه، وتشبَّث بالسلاح بكلتا يديـه. في عينيه يلوح التصميم والإصرار والغموض. يداه ثابتتـان. في المواجهـة استسلم الأبلق أيضاً. التقت عيناهما. الاستسـلام في عينيه أيضـاً. لم ير فيهمـا الدهشـة. بل العكس. بـارك الخطوة. عينـاه قالتـا له: «اضغط على الـزناد!». عينـاه تحثانه، تشجعانه. العينان العميقتان، الصافيتان كمياه عين الكرمة، قالتا

له: أطفىء النار. إذا نويت الفراق فسارع بإطفاء النار فلن تكون الظلمات أقسى من نار «آسيار»، ولن تعادل شراسة الطريق إلى «أوال». فأطفىء النار!.

تمدد لقاء العينين، فانكسر الإصرار، وارتجفت الكف.

غرس الفوهة في الرمل عند ساقي المهري المطويتين، ووقف لحظات يرتعد. ثم أحس بالسائل المغلي على وجنتيه مرة أخرى. تصاعد الغضب. احترق من فورة الغضب. كل شيء في صدره يغلي ويشتعل. كيف يطفىء النار؟.

انهال على رأسه بكعب البندقية. سقطت العمامة، وواصل قرع جبينه بالضربات.. ضربات الكعب الحديدي. انفلت الدم، تناثر على يديه، وسقطت قطرات على الرمل وقطعة الخيش. امتزجت بحبّات الشعير، قطرات أخرى لوثت وجه الأبلق. الأبلق راقب الجنون بقلق. ثم تطور القلق في عينيه إلى خوف. وكلما ازداد عدد الضربات ازداد الهلع. ربما لأنه لم يعرف الجنون. ربما لاعتقاده بأن الإنسان انفرد بهبة العقل وليس من حقه أن يفقد هذه النعمة كالحيوان. أوخيّد فقد العقل الآن. فمن هو بهذه الحال؟ ماذا سيفعل بنفسه؟ إلى أين يمضي بهذه الضربات الوحشية على الرأس؟.

فتح فكيه فجأة بـ:

ـ آ ـ آ ـ آ ـ آ...

ابتلع الخلاء النداء الأليم.

توقف أوخيّد وانهار على الرمل.

حلّ الأصيل.

وجد نفسه محموماً ملوثاً بالعرق إلى جانب الدم. لم يدر متى وكيف

أغفى. الجروح تحطم رأسه بالصداع. ولكن أنّى لآلام البدن أن تتفوّق على آلام القلب! لو وجدت آلام البدن السبيل لابتلاع آلام القلب لما تألم أحد. فبمجرد ما استيقظ وتذكّر ما حدث زال صداع الرأس وألم الجسد. ألم القلب أكل الألم.

ذهب واغتسل في عين الكرمة. أخفى الجرح بلثامه، وجلس في ظل النخلات المتشابكة في حلقة حول العين. شرب الماء، وبلل صدره وملابسه ورأسه. قام وقصد الواحة.

وجد القاضي في حلقة الشيوخ، يحتمي من شمس الظهيرة بجدار الساحة، وينشغل بمحاربة الذباب الملحاح بمروحة السعف. طلبه على انفراد، وأصرّ أن يحرر له ورقة الطلاق. حاول القاضي أن يثنيه ويرجىء المكتوب. قال إنه ليس ثمّ أسهل من تنفيذ الطلاق برغم أنه أبغض الحلال عند الله ولكن الأصعب هو ضبط النفس تحاشياً للندم. وعندما يئس من الموعظة أمام إصراره لجأ للحيلة تحقيقاً للتريث وضرب العاطفة والهوى. طلب شاهداً. خرج أوخيّد، وجرّ أول فلّاح قابله في الساحة، وأدخله على القاضي. زفر الرجل بخيبة وقال: «إذا عزم إبليس على أمر ظلّ يسهّل له ويزيح الأحجار عن طريقه حتى يدفع بصاحبه إلى الهاوية. الله غالب!»، وأعطاه الورقة المشؤومة.

طواها، ودسّها في جيبه، وسافر إلى «دنبابة».

اختلى بـ«دودو»، وسلّم له الوثيقة.. وثيقة التسليم.. الخلاص.. لتحرر من الوهق والدمية والوهم.. إلى الأبد. الوداع.

فرح الرجل. أمر خدمه أن يحضروا الشاي ويعدوا العشاء. قال:

ـ كنت أعرف أنك ستفعل ذلك. حسناً فعلت. كسرت القيد وفزت بالصديق. في عينيك وفي عينيه رأيت ذلك منذ أول يوم. السرّ في العين.

ابتسم وأكمل:

ـ من يبدّل زرافاً كأبلقك هذا بامرأة حتى لو كانت آلهة في الجمال مثل «تانيت»؟ استغفر الله ولكن كل شيء مكتوب على الجبين.

أخرج من صندوق الحديد جراباً جلدياً قديماً، موسوماً بإشارات السحرة، غرف منه بفنجان الشاي مرتين، فتلألأ التبر وأعمى العيون. أشعة الغسق الصفراء انعكست على الحبيبات الصفراء فتلامع الذهب.

قدّم له الصرّة، وقال:

ـ لا تعتبر هذا رشوة. إنه سيقيك شر الحاجة حتى تمر المجاعة.

قال أوخيّد:

ـ لا أعتقد أني سأحتاج إليه. يقال في قبيلتنا إنه ي[illegible]عنة.

تجاهل النصف الثاني من الجملة، وعلّق على النص[illegible]لأول:

ـ لا يحتاج إليه الإنس فقط وإنما الجن أيضاً. صراع الإنس والجن بسببه. وصراع الشيطان والإنسان بسببه. وصراع الإنسان والإنسان بسببه. فكيف لا تحتاج إليه؟ دخلت بسببه الحبس، ووقعت في الأسر، ونكّل بي زنوج بامبارا. ولكن لا تنسَ أن بدونه لما حققت ما حققت!.

لوّح بالورقة في الهواء، وابتسم، فذكّره أوخيّد بإصرار طفولي:

ـ ولكن يقال إنه ملعون ويجلب الشؤم.

ـ هذه خرافات يشيعها العاجزون عن الحصول عليه. الذهب هدف كل إنسان منذ أن يولد إلى أن يموت باستثناء الفاشلين والدراويش. الفاشلون والدراويش يرجمونه بالشائعات لأنهم فشلوا في الحصول عليه. صدّقني!.

ولمع في عينيه بريق.

ـ ٢٤ ـ

في المراتع الجنوبية المحاذية لجبل الحساونة، استردّ الأبلق عافيته.

فازت تلك البقعة بأمطار سحابة عابرة في نهاية الربيع الماضي، وخفيت عن الرعاة المحترفين بسبب فوزها المتأخر بالمطر. اكتشفها أوخيّد بعد خروجه من «آدرار» متجهاً إلى الصحراء الشمالية فاستقرّ هناك. ترك المهري في المرعى الأخضر، وآوى إلى كهف في الطرف الغربي من الجبل.

عقد العزم على الاستقرار هنا.

ليس لأن الله كافأه واكتشف هذا الكنز الذي خفي عن الرحل والرعاة فقط، ولكن لأنه اكتشف كنزاً آخر أيضاً. في تلك السهول وجد الثمرة السحرية: الترفاس! لم يأكل الترفاس منذ أن استقر بالواحة الملعونة. وكيف يصبر طويلاً على الترفاس من ذاق مرة طعم الترفاس؟.

في تلك السهول السرّية لم يسترد الأبلق لحمه وشحمه وبهاءه فقط، ولكنه ذاق الترفاس بعد عمر طويل في منفى الواحات، فتوّج صبره وعذابه بالمكافأة.

ولكن المكافأة الحقيقية ليست في الترفاس وليست في استرداد الأبلق لصحته.

المكافأة في الصفاء والهناء والسكينة، في الهدوء والفضاء وامتداد الخلاء. لا يعرف معنى الطمأنينة إلا من كان مكبلاً بقيود الواحات، بالوهق والدمية والوهم، بهموم الحياة ودسائس الناس. يعاند بالنهار ويسهر بالليل مهموماً فلا تزداد القيود إلّا ضيقاً وشراسة. كلّما فكّ عقدة وجد أغلالاً جديدة تكبل يديه ورجليه وتلتف حول عنقه كثعبان الأدغال. كلما أطلّ برأسه وتخيل النجاة من الغرق تلاحمت قوى خفية وشدته إلى أسفل قاع. يقال إن في عين الكرمة يسكن عفريت يحترف هذه اللعبة، ولا يقوم بإغراق ضحاياه إلا إذا جاؤوا للسباحة وحيدين. ويتجنّب الإيقاع بأولئك الذين يصطحبون رفقاء.

هذه حيل الحياة في الواحات أيضاً. العفريت لا يسكن عين الكرمة وحدها، ولكنه يسكن الواحة كلها: الواحة كلها.

أما هنا فإن العفاريت تموت عطشاً، ويبقى المدى في الخلاء والمدى في القلب. الصمت في الأذن والصمت في القلب. سكينة في الصحراء وسكينة في القلب. ماء عين الكرمة يغسل الجسد، والصحراء وحدها تغسل الروح. تتطهر. تخلو. تتفرغ. تتفضى. فيسهل أن تنطلق لتتحد بالخلاء الأبدي. بالأفق، بالفضاء المؤدي إلى مكان خارج الأفق وخارج الفضاء. بالدنيا الأخرى. بالآخرة. نعم بالآخرة. هنا، فقط، هنا، في السهول الممتدة. في المتاهة العارية. حيث تلتقي الأطراف الثلاثة: العراء ـ الأفق ـ الفضاء لتنسج الفلك الذي يسبح ليتصل بالأبدية. بالآخرة.

هذا الالتحام السماوي، التحام الثالوث المقدس هو الذي ينشر الطمأنينة وينسج خيوط السكينة ويزرع الصمت والهدوء في القلب. سمع الشيخ موسى يردد هذه السورة منذ طفولته. نعم ردد هذه الآية حتى اعتقد أنها سورة من القرآن: الطمأنينة. ولكنه لم يعرف معناها إلّا الآن بعد أن ذاق الحياة في الواحات واقتنى لنفسه القيود الشيطانية كما يفعل كل الناس

في الدنيا. كل الأغبياء في الدنيا. استبدل بالحرية الوهق والدمية والوهم وقال لنفسه كما يقول الجميع: «هكذا وجدنا آباءنا يفعلون». الآن فهم معنى هذه الآية. عندما سمعها من الشيخ موسى وحفظها لم يكن يدري أنه سيسير في نفس الطريق. قوم إبراهيم يصرّون على عبادة الأصنام لمجرد أنهم ورثوا التقليد أباً عن جدّ. وهو تزوج وأنجب وصنع مكاناً للعار في قلبه كي يحبس نفسه في قيود أقوى من سلسلة الحديد التي يزيد طولها عن السبعين ذراعاً.

تخلّى عن الآية. عن السورة. عن التعويذة السحرية. تخلّى عن كلمة السرّ: الطمأنينة، الحرية. السكينة. تخلّى عنها تلقائياً بمجرد أن هجر الصحراء وسلّم رقبته لسلاسل الاستقرار في الواحات. كل سكان الواحات عبيد. لا يقيم وراء جدار أو كوخ إلا عبد. وهو عبد فريد لأنه أعمى. عبد لا يرى عبوديته، عبودية الروح. ليس عبداً لعبد ولكنه عبد لشيطان قبض روحه بالسلاسل. عبيد الشيطان أسوأ من عبيد الناس. هذا هو العبد البشع الذي يثير الاشمئزاز. عبد العبيد يثير الشفقة، أما عبد الشيطان فيثير الاشمئزاز. وهو أيضاً كاد يهلك. . كاد يغرق. الأبلق أنقذه من القيد. الأبلق رسول. الأبلق روح بعثه الله كي يحرر قلبه المقيد بالأصفاد. لولا الحيوان الطاهر لاقتفى أثر إبليس ولتخلّف عن السفينة ولهلك مع الهالكين. كاد يتوغل في زحمة المغفلين. زحمة الغافلين الذين ورثوا الأعباء عن الآباء: الوهق والدمية والوهم. الأبلق رسول النجاة. سفينة النجاة، سفينة الحرية. ها هما ينطلقان كغزالين في صحراء الله الواسعة، الصحراء الخالدة الموصولة بالآخرة.

وداعاً للقيود المكسورة.

وداعاً للقفص الذي يفوق في قوته قضبان بقايا السجون التي تركها القائمقام التركي قبل أن ينسحب من الواحة.

الفضل يرجع للأبلق في تحطيم هذا القفص.

وها هو الله يكافئه على الصبر ويهديه إلى هذا الكنز. المراعي الخفية، المراعي التي اخضرّت بالسحب العابرة هدية سماوية في الصحراء. حتى الصحراء العارية تعرف كيف تخبىء المفاجآت لتكافىء بها الصابرين. كافأت المهري بالعشب وكافأته هو بالترفاس. الترفاس أيضاً كنز مخفي. وما هو الكنز إن لم يكن ترفاساً؟ ثمرة تسقط من السماء. يجود بها العدم. تتشقق عنها الأرض. شذى ينطلق تائهاً في المطلق، تذروه الرياح وتعيده إلى الأرض. تلتحم البروق وتتزاوج بالرعود فتولد الثمرة السحرية من قلب الفناء.

التمتع بالترفاس في بداية الصيف. هذه رحمة من السماء. هذا فردوس الأرض.

ولكن هل يدوم الفردوس حتى للأولياء؟ هل يدوم النعيم حتى للأنبياء؟.

- ٢٥ -

التقى بأحد الرعاة.

جاء مع العشية على جمل بدين، قصير القامة، أشعث الوبر. عَقَلَه في السهل وهتف: «تبارك الله!» ثلاث مرات قبل أن يطلق التحية. قال إنه يبحث عن جماله الضائعة. قال أيضاً إن أوخيّد وليّ ما دام الله قد رزقه دون غيره بهذا الكلأ لأن أطراف القارة الصحراوية جدباء هذا العام.

استضافه أوخيّد بالشاي.

قال له:

- جدير بك أن تكتم السر.

- سأكتمه إذا كتمته أنت.

ضحك البدوي وقال:

- أعدك أني سأكتمه بشرط أن تدعني أرعى هنا جمالي.

ضحك وأضاف:

- هذا إذا وفقني الله ووجدتهم في صحراء الله الواسعة.

- ستجدهم إن شاء الله. ستجدهم.

- لا شك أني سأجدهم. الله يستجيب لدعاء الأولياء.

مسح لحيته، واتكأ الحصى سعيداً:

ـ سأكتم السرّ مقابل الرعي. أنا كما ترى لا أطلب كثيراً مقابل السكوت.

عاد يضحك ثم قال:

ـ القناعة. كل الفقهاء يجمعون على إدانة الطمع. وأنا أصدّقهم. لعنة الله على المال. هل سمعت بذلك الرجل الذي باع زوجته وولده في واحة آدرار مقابل حفنة من التّبر؟.

جمد الدم في عروق أوخيّد. صرخ:

ـ ماذا؟.

ـ القصة على كل لسان. تنازل لأحد الغرباء الأثرياء عن زوجته وولده مقابل حفنة من التبر. الذهب الذهب يعمي البصر. الآن فقط صدقت أن هذا النحاس ملعون حقاً.

سكت أوخيَّد. سيل من العرق البارد تدفق على ظهره. ظهره مبلول كله. ارتعدت يداه فاندلق الشاي على الأرض. ثم نزف العرق من جبينه وفمه وسقطت قطرات في الفناجين وامتزجت بالشاي الأخضر المتوج بالرغوة. قلبه أيضاً نزف. نزف بالدم.

نسي في لحظة واحدة الحمل الذي ورثه عن الأباء. الزوجة والولد والعار. نسي أنهم وهق خانق، ودمية مهلكة، ووهم فارغ، وعادت للأشياء معانيها القديمة. عاد الوهق زوجة مقدسة، وعادت الدمية ذرية وخليفة عهد، وعاد الوهم الكاذب عاراً حقيقياً.

حدث هذا في رمشة عين.

غاب الحلم الجميل وجاءت الحقيقة القاسية، البشعة.

توارى الوحي وحلّ الواقع. تبددت الحرية وجاءت الأصفاد. فخيّل إليه

أن كل ما فكّر فيه طوال رحلته الجسور نحو الخلاص كان وهماً. الوهم هو الوهم الآن. والزوجة هي الملاذ والولد هو المهدي المنتظر. انقلبت الآية في لحظة.

ليس ذلك غريباً. الإنسان إذا قرر أن يلوي العصا في يد إبليس لا ينبغي له أن يغفل. فبمجرد أن يتخاطب مع مخلوق يتكلم الإنسان بلسان الشيطان فيغيب الوحي الإلهي وتختفي الإشارة السماوية.

ومن أين للبدوي المسكين أن يعرف هذه الحيلة؟ من أين له أن يعلم بقدرة الملعون على تطيير العقل.. تطيير الوحي حتى لو كان إلهيّاً؟.

- ٢٦ -

ثلاث ليال متتالية رأى البيت المهدّم.

لم يكن ينام. الجمرة في قلبه لم تترك المجال للنوم. ولكنه يفوز بغفوة قصيرة مع قبس الفجر في كل ليلة فيرى الخربة الكئيبة. وبرغم أنه يعرف أن الغفوة لا تستمر طويلاً إلا أن تجواله في الأنقاض يستغرق ليلة كاملة.

هذا الحلم ليس جديداً.

في طفولته عذّبه كثيراً. في السنوات الأولى من شبابه أيضاً. في ذلك الوقت لم يزر الواحات بعد. ولم ير بيتاً مبنيّاً بالطين ولا بالحجر في حياته. وبرغم ذلك يزوره البيت المظلم، الكئيب. البيت مشيّد بقوالب الطين. ذو طابقين. مسقوف بجذوع النخيل. فوق الجذوع طرحت طبقة من السعف. فوق السعف طرح الطين المخلوط بالتراب. الطابق الأرضي مهدّم. انهارت جدارن بعض الغرف. شيء آخر لاحظه في هذا البيت. هو مهجور وبلا وافذ أو أبواب. والغريب أنه يجد نفسه محبوساً في الداخل دون أن يعرف ن أين دخل. ودائماً يجد نفسه في الطابق الثاني، فيمشي في الممرات المظلمة باحثاً عن مخرج. عن باب أو نافذة أو نور. وكانت أرضية هذا الطابق تميد وتهدد بالانهيار فيسرع الخطى محبوس الأنفاس. يخشى السقوط ويحس بوجود كائن مجهول لا يظهر أبداً. ولكنه لم ير شبحاً واحداً

أيضاً. وكل خشيته في هذه الرحلة المتكررة في أمرين: السقوط وغضبة الكائن الخفي!.

توقف الحلم في شبابه. توقف فجأة. ثم نسيه.

وقد عاد في أول ليلة اختطف فيها نعسة بعد حديث عابر السبيل. وتتابع الحلم ثلاث ليال متتالية. والآن، والآن فقط، بعد عودة الحلم، رأى بوضوح الثالوث الغامض الذي يخيفه في الرؤية: الظلمة، والسقف المهدد بالانهيار، والكائن المجهول الذي لم يحدث أبداً، لا في الماضي، ولا في هذه المرات الثلاث، أن أعلن عن نفسه بكلمة أو إشارة. ولكنه، برغم ذلك، يعرف أنه موجود في مكان ما في البيت. في نهاية أحد الممرات. أو في ركن من إحدى الغرف. أو في السقف، أو فوق السطح، أو أسفل، في الطابق الأرضي، حيث الأنقاض وأكوام القوالب الطينية المنهارة. وهو يخاف. يخاف هذا الكائن. لا يعرف ما يخبئه بالضبط ولكن مجرد وجوده ينشر في قلبه الخوف. خوف يجعله يحس بالخجل عندما يفيق. خوف لا يشعر به في اليقظة ولا يتصوّر أن شيئاً يمكن أن يزرع في نفسه خوفاً مثل ذلك الخوف. حتى الموت لا يثير فيه إحساساً مماثلاً، فلماذا يخاف؟ ومم؟ ومن هو هذا الكائن؟ هل هو إنس أو جن؟ ملاك أم شيطان؟ قديس أم إبليس؟.

يجاهد في البحث ولكن شيئين يقفان مانعاً في طريقه: الظلمة والسقف الخطر المهدد بالانهيار. فترتعد خطواته. يرتبك. ينز العرق. تتلاحق أنفاسه، يتلمس طريقه بحذر في الممرات الخالية، كالأعمى، دون أن يستعين بالجدران. لا يعرف لماذا لا يستعين بالجدران في بحثه. يخطو في الفراغ، وحيداً، عاجزاً، مهدداً بالسقوط في الهاوية. وكلما صحا من الرؤية تنفس بعمق وحمد الله أنه لم يسقط وأن ما حدث هناك لا يحدث هنا، في الحياة.

والمحيّر أيضاً أنه لا يعرف من أين يظهر في البيت الخرب إذ لا باب هناك ولا نوافذ. ولا يسقط في الداخل من السماء أيضاً. إنه يظهر داخل البيت ولا يخرج منه إلّا عندما يصحو. يهيم في الظلام كالأعمى. يرتجف خوفاً من السقوط ومن الكائن الخفي ولا يجد منفذاً في الدائرة السحرية حتى يفيق.

وكان دائماً يسيطر عليه يقين غامض أنه يستطيع أن يكتشف الكائن الخفي لولا الأرضية المهزوزة، لولا الجذوع المتداعية، ولولا الظلمة أيضاً. الأرضية والظلمة هما العائق. فيحاول أن يجبر نفسه ولكن العجز ينتصر في النهاية.

الحلم توقف في اليوم الرابع برغم أنه نام نوماً مزعجاً مضطرباً.

وبرغم أن الحزن الذي زرعه العار في قلبه تفوق على كل ألم، إلّا أن عودة الحلم ملأته بهاجس الخوف. خوف ،. الخوف من أمر مجهول. إلى حدّ طغى حتى على العار نفسه ، عندما اختفى الحلم في الليلة الرابعة بقي هاجس الخوف.

في تلك الأيام لم يجد لنفسه مكاناً. نسي الشاي. نسي الماء. نسي الأبلق. نسي حتى الأبلق. قضى الوقت يهيم في السهول. يصعد الجبل وينزل. حتى يهدّه التعب فيستلقي في مكانه. تحت رتمة أو سدرة. بجوار صخرة أو داخل كهف. في قمة الجبل أو على السفح. وكان الأبلق يقتفي أثره حائراً. حتى إذا صعد الجبل وقف عند حذائه حائراً. قلقاً. حزيناً.

فماذا حدث؟ من تجاسر على إطلاق هذه الشائعة البشعة؟ من المسؤول عن هذا التحريف؟ من قلب الآية؟ هل هو دودو؟ أم خدمه الأوباش؟ هل هي «أيور» تريد أن تردّ الإهانة لأنه استبدلها مقابل جمل فلاحقته بهذه الطعنة؟ أم أن هؤلاء كلهم مشتركون في صياغة الكذبة؟ ولكن كيف سوّلت أنفسهم أن يقولوا إنه باع مقابل حفنة التبر؟ ما دخل الذهب هنا؟ تلقى الذرّات هدية في

آخر لحظة. رفضها ولكن صاحب الشأن هو الذي أصر فهل كان يتعمد نصب فخ بهذا الإصرار؟ وأكثر ما حيره كيف جنّحت الشائعة وطارت إلى أقصى الصحراء. من زمان يقولون إن الريح هي التي تنقل الشائعات والأخبار في الصحراء. الريح متخصصة في نقل الفضائح الأخلاقية بوجه خاص. بنقل العار. يا إلهي. هذا عار لم تسمع بمثله الصحراء من قبل. حتى أكثر العبيد عبودية لم يبع زوجته وطفله مقابل حفنة من التبر. حفنة من التراب. لعنة الله على الذهب. قال إنه يجلب النحس. صرّح برأيه لدودو. أعلن أن النحاس الأصفر ملعون في القبيلة. ها هي لعنتة تلحقه أيضاً. لحقته دون إثم. زوراً وبهتاناً. أم أنه آثم؟ آه. كاد ينسى. النذر. نذر تانيت. هل هذا هو نذر تانيت؟ أم لعنة الأب؟ يا ربي. الرأس يتكسر. القلب ينفجر. أين النفس؟ أين الصبر؟ الصبر عبادة. الصبر صلاة. الصبر هوْ الحياة. من الصعب أن يستوعب العقل في الضيق. في الضيق تتلاشى كل تعاويذ الأرض. هل هذا ما يسميه شيوخ الطريقة: الوسوسة؟ هل هذا ما يسميه الناس: الجنون!.

صبر على كل البلايا ولكن كيف يصبر على شيء كهذا؟ إنه أكبر من العار. إنه أسوأ من الموت. ليته مات. لا. لا. لا ينبغي أن يموت قبل أن يصحح هذا الخطأ. لا بد أن يقنع الناس بحقيقة ما حدث. لم يبع أحداً سوى قيوده. تخلّى عنهم طائعاً كي يسترد حياته مع الأبلق. كان يسعى لأن يخلص.. يتخلص. يـ.. تـ.. حـ.. ر.. ر. ولكن من يفهم هذا الهراء؟ من يصدّق هذه الأساطير؟.

لقد أخذ التبر. وفكّ رهن الجمل وسلّم امرأته وولده لرجل غريب يدّعي قرابة ربما كانت مزعومة.

لقد وقع ضحية سهلة في الفخ. لن يصدقه أحد. كل الأدلة تدينه. كل البراهين ضدّه؟ ما العمل؟ لا بد من تصحيح الخطأ. لن يترك الأمر هكذا.

لن يموت مجللاً بعار كهذا. سيذهب إلى الوغد. سينتزع من شفتيه الحقيقة للناس. الكلب ابن الكلب. و. . سيعيد له التبر الملعون. شوّهه بالذرّات الصفراء. لوّث يديه. لطخ روحه. امتدت يده إلى عرين اللعنة. اللعنة الكامنة في الكنوز. فتلطخت يده. تعفنت إلى الأبد. ماذا سيطهرها الآن من النحاس الملعون؟ كيف سيمسح الإهانة؟ كيف سيمسح اللعنة؟ كيف سيغسل قلبه من الحرام؟ وإذا استطاع الموت أن يمسح اللعنة فهل يستطيع أن يغسل الإهانة في رؤوس الناس؟ آه. ما أشقاه! ما أشقاه، ما أشقاه!.

صمّم على الرحيل، ولكن الشائعة حطمت، بضربة واحدة، الأسطورة: فعاد الوهم عاراً والدمية ولداً والوهق زوجة. وعاد لكل شيء معناه القديم أقوى مما كان.

- ٢٧ -

لا يعي كيف قطع الطريق ولا يعرف كيف وصل الواحة ولا يذكر كم ليلة استغرقتها الرحلة ولا يدري عما إذا بات في الطريق أم واصل سفره ليل نهار بدون توقف.

جنوب الواحة، في العراء المجاور لاحراش النخيل الملاصقة لكوخه، رأى كوكبة من الملثمين تعتني بالمهاري الضامرة. هل هو العرس؟ هل جاء ليلة العرس؟.

تعمّد أن يسلك الطريق الذي يلتف حول الغابة ويدور خارج الطوق الأخضر. في المدخل قابل فلاحاً. سأله أين يمكنه أن يجد «دودو». تلعثم الفلاّح وارتبك. وخيل إليه أنه وقف لحظات مدهوشاً حائراً قبل أن ينطق مشيراً باصبعه ناحية الشرق:

ـ ستجده هناك. في عين الكرمة.

ثم تابعه وهو يجرجر الأبلق حتى توارى خلف أحراش النخل، في حين تضاعفت الحيرة والدهشة في عينيه. فما معنى هذا؟ ماذا أراد الفلاّح أن يقول بهذه النظرة. هل عودته هي السبب؟ هل انطلقت شائعة أخرى في الواحة تنعيه وتعلن موته؟ أم أن الفلاّح المسكين سمع بعاره، كغيره من الأهالي، فاستنكر فعلته وأدهشه أن يراه في الواحة بعد عملته البشعة؟ أم قرأ في عينيه أمراً؟ أم مجرد أنه رأى على وجهه التعب؟.

الله وحده يعلم ماذا يجول في رؤوس الفلاحين.

من الغرب، خلف الأحراش، انطلقت زغرودة بعيدة.

هل هو العرس؟

حول عين الكرمة خيّم السكون. ولكن ذكورالجنادب قطعت شوطاً بعيداً في مسابقتها الغنائية.

سمع شوشرة الماء المتدفق من العين عبر الجدول. اقترب من فوهة العين.

فم العين مطوّق بحزام كثيف من أشجار مختلفة. نخيل وتين ورمّان. حلقة الأشجار تترك منفذاً واحداً يفضي إلى الصحراء الشرقية. من هذا المدخل تبدو قمم التلال الرملية. أمّا الفوهة فدائرية، واسعة، تطفح فيها المياه الصافية الساكنة حتى الحافة.

دار أوخيّد يميناً كي يتمكن من الدخول عبر الطريق الشرقي وحتى لا يضطر إلى التخلي عن المهري. قبل أن يبلغ الفوهة رأى الثياب الفضفاضة مطروحة على نخلة قصيرة القامة. كثيفة الأغصان. تتابعت دقّات قلبه وازداد السكون عمقاً. خيل له أن الأشجار أيضاً تنصت وتتفكر وتراقب. و.. تنتظر. مع ازدياد السكون ازدادت مباراة الجنادب الغنائية صخباً وجنوناً. سمع ضجة الماء في العين. يتغسّل. العريس يتغسّل. يتهيأ كي يتسلل إلى فراشه لينام بجوار زوجته. سرق منه زوجته. عرف كيف يستولي عليها. نصب له شركاً واختلسها. المجرم. قاطع الطريق. أسوأ قاطع طريق. قطاع الطرق يسرقون الإبل وهذا الشيطان يسرق الزوجات. هل رأت الصحراء قاطع طريق يسرق الزوجات من أزواجهن؟ هذه أول مرة. هو أول ضحية. ليس هذا فحسب. وإنما يذهب ويقول للناس أنه اشتراها بماله. بحلاله. بالتبر. وهؤلاء هم الشهود. عبيده هم الشهود، سيشهدون.

شهدوا. ضمن أن الناس لن تتكلم. الناس ستباركه. جاء من آير لاسترداد قريبته. ابنة عمه. بماله. بذراعه. من يستطيع أن يعترض؟ بالعكس. هو شهم. هو بطل. دودو بطل. أما هو. سليل اخنوخن العظيم. ابن شيخ أعرق قبائل الصحراء، فباع زوجته وولده مقابل حفنة من وسخ الدنيا. هو نذل. هو ملوث بالعار. يا للعار!.

وقف فوق رأس غريمه.

انحرفت شمس العشية نحو الغروب.

تبادلا نظرة طويلة.

توقف دودو عن العبث بالماء ورفع نحوه نظرة بلهاء. نظرة عارية. رأسه حاسر من اللثام. عيناه أيضاً. لا يضع لثاماً الآن على قلبه. ضبطه قبل أن يلثِّم قلبه. هذا الساحر. نظرته الآن تختلف. ضبط متلبساً. أثناء ممارسته لفعلته. أذناه كبيرتان، متدليتان كأذني جحش. ورأسه أصلع. مستطيل. لحيته مثل لحية التيس. وعظام صدره بارزة. جسده نحيل. لا يبدو بهذا النحول عندما يكون لابساً ثيابه الفضفاضة. ثياب الطواويس تنفخ في جثته فيبدو مارداً. مزيف. كل شيء فيه مزيف. واستغرب الآن كيف استطاع أن يخدعه هذا الحيوان الأبله بهذه السهولة. كيف أعمى بصره وبصيرته. ساحر. لا شك أنه ساحر. آير بلاد السحر والسحرة. لا شك أنه أحدهم.

شيّع يده وارتفعت نحو رأسه. لم يصوّب طويلاً. ضغط على الزناد دون أن يحيد عنه بصره. انبثق الدوّي ولكن الرصاصة لم تصبه. انتفض وفاضت عيناه بالتوسل. فيهما ضراعة. فتح شفتيه. أراد أن يقول شيئاً ولكنه لم ينطق. لأن الطلقة الثانية اخترقت نحره. نحره بالضبط. أصابته في البلعوم فذبحته. غاب تحت الماء مفتوح العينين والشفتين. ماتت الكلمة على الشفتين. لم تمهله الرصاصة لينطق. ليقول كلمته. امتزج الدم بالماء في العين. موجات الماء الأحمر امتدت واتسعت وابتلعت صفاء الماء.

فتح صرّة التبر وألقى بها في العين. فوق المكان الذي غابت فيه الجثة. قال:

ـ وهذه هدية الزرافة!.

تلألأت المياه، تحت أشعة الشمس الغاربة، بذرّات التبر اللامعة والدم الأحمر!.

من أقصى الغرب، خلف الغابة، انطلقت زغرودة بعيدة.

- ٢٨ -

طار إلى الصحراء. عاد إلى جبل الحساونة واعتصم بالكهوف.

قضى الليلة الأولى بعد الحادث في الخلاء. هناك عادت الرؤيا المهاجرة. الرؤيا التي هجرته في الليلة الرابعة بعد الخبر. الكائن الخفي القابع في ثنايا الظلمات، الظلمات المحبوسة في بيت الأنقاض. بيت الطين المهدّم. وبرغم أنه مهدّم إلا أنه محكم الإغلاق. لا نوافذ ولا أبواب. مثل دائرة مغلقة. وهو يجوس في الممرات الوهمية. فوق السقف الآيل للسقوط. يتلمّس الهواء بحثاً عن الكائن، عن السرّ. يتعثر. يتفقد بيديه. يتحاشى الجدران الوهمية، وهمية ولكنه يعرف أنها موجودة. لا يراها ولا يلمسها ولكنها موجودة، سميكة، ثقيلة. قاسية، بشعة.

وأعجب ما في الرؤية الأخيرة أنها لم تكن رؤيا. بدأها غافياً وواصلها مستيقظاً، واعياً، مفتوح العينين. تعمد أن يفتح جفنيه كي يعبر الحلم ولكن الظلمات استمرت كثيفة، والسقف الذي يمشي عليه يهتز ويهدد بالسقوط. والكائن الخفي يومىء ويوحي بوجوده دون أن يظهر. استمرت يقظته العجيبة زمناً، تخيّله ساعات. وعندما جلس أحس بالصداع ورأى قبس الفجر. استلقى وعاد إلى النوم.

في الأيام التالية انقطع الحلم مرة أخرى.

مكث في حدود الجبل.

الطريق إلى الحمادة ما زال مهدداً بالغزاة. وفي الأطراف الغربية والجنوبية ينتشر أبناء قبيلته المشتتة. وقد عرف أن صلته بهم بعد ما حدث، انقطعت. صلته ليس بقبيلته فقط ولكن مع كل الناس. عاره لن يمحوه الدم. لن يمحوه حتى الموت. ستطارده اللعنة حتى بعد الممات. حكم عليه بالعزلة إلى الأبد. لن يجرؤ على التحدث إلى مخلوق. لن يجسر على النظر في عيني إنسان. الأبلق الآن هو صديقه الوحيد. أراد أن يبقى بجوار الأبلق فكتب له الله جواره الأبدي. الأبلق الآن له، وهو للأبلق. لن يفرقهما إلا الفناء. بل حتى الفناء لن يفرقهما. سوف يذهبان معاً. سيعودان إلى أصلهما معاً، كما كانا قبل أن يولدا. فهل ما حدث نعمة أم لعنة؟.

•في اللعنة أيضاً يوجد سرّ. في اللعنة أيضاً خلاص. في اللعنة خلاص عندما تكون أبديّة. لأنها تدفع إلى المنفى، والنجاة في المنفى.

ولكن اللعنة لم تتوقف عند حدود المنفى.

إذ جاء من آير أقارب القتيل، وانتشروا في الصحراء طلباً لرأسه.

في الأصل جاؤوا لاقتسام الثروة. في الأصل هم ورثة ادّعوا القرابة كي يفوزوا بالثروة. ولمّا كان دمه حائلاً بينهم وبين الثروة. لمّا كان عرف الصحراء لا يبيح تقاسم الإرث، تقاسم الغنيمة، قبل الانتقام للقتيل، فإنهم جدّوا في البحث عنه. جدّوا وعجّلوا في الظفر به لا حبّاً في دودو ولكن كي ينهوا عملهم ويوزعوا الثروة بأسرع وقت. استعملوا في ذلك حيلاً دخيلة لم تعرفها الصحاري الشمالية. لجأوا إلى الرشوة. رشوا الرعاة والرحل الخبراء بتفاصيل الصحراء الشمالية. الذهب يعمي الجميع. الذهب يفسد أفضل الخلق. الذهب الملعون قادهم إليه. الذهب وراءه. الذهب سبب كل اللعنات.

في الأيام الأولى مشّطوا السلسلة. ثم اهتدوا إلى مقرّه بآثار الأبلق. نبّهه إليهم أحد الرعاة المهاجرين إلى زويلة. قال له إنهم يتسابقون لنحره كي يقضوا الأمر المفعول ويعودوا إلى بلادهم.

في الأيام الأولى مشّطوا السلسلة الجبلية وفتشوا القمم حجراً حجراً. ثم اهتدوا إلى مقرّه بآثار الأبلق. ببعر البعير. عسكروا تحت الجبل ونصبوا خيمة. توقفوا عن التطاول في صخور الجبل عدة أيام. ربما لأنهم ينتظرون رسولاً أو أمراً من جماعتهم في الواحة. فريق منهم أشرف على قطعان الإبل في «دنبابة»، وفريق ثالث رابط في «آدرار». وقاد المعركة من هناك.

هكذا حدّثه الراعي المهاجر إلى الشرق.

فكّر في الفخ. الوقت ليس في صالحه. إذا استمرّ معتصماً بشقوق هذه المنطقة فإنهم سيتمكنون منه بين يوم وليلة. خلال أيام في أحسن تقدير. زاده من الماء سينضب بعد يومين، وأعشاب السحابة الرحيمة بدأت تشحب وتذبل. شمس الصيف باشرت عملها.

انتظر حتى عمّت الظلمة. تسلل بين الصخور حتى بلغ الشعبة التي يرعى فيها الأبلق. وضع عليها السرج والقربة وما استطاع أن يحمله من متاع وانطلق بمحاذاة السلسلة صوب الشرق. ركض النهار كله حتى أشرف على نهاية الجبل شرقاً. صعد إلى قمة وخبأ مؤونته هناك. عاد إلى المهري وأمسك برقبته. نظر في عينيه العميقتين الرحيمتين وتوسّل إليه:

ـ الآن سنفترق. لا بد أن نفترق. سيقتلوننا إذا لم نفترق. اذهب إلى الحمادة. ابتعد من هنا. لا تخف عليّ. لن ينالني أحد في تلك القمم. هم لا يخبرون مسالكها وشعابها وكهوفها مثلي. هم غرباء. المهم أن تذهب أنت. أن تختفي. في الحمادة الواسعة ستنجو. وعندما ينقشع الهمّ سنلتقي مرّة أخرى. ولن نفترق بعدها أبداً. هل اتفقنا؟

نهض الجمـل، وتمسّح بشفتيـه على ذراعه، وتلمّس بلسـانه وجنتيـه البارزتين خلف اللثام القاتم.

لوّح له أوخيّد بالوصية الأخيرة، بكلمة السرّ:

ـ اصبر فقط. لا تنس التعويذة. الصبر هو الحياة.

حدّق المهري في الأفق، حيث يمتد العراء الأبدي، قبل أن ينطلق في رحلته الطويلة.

في عينيه، رأى أوخيّد حزناً لم يره من قبل.

- ٢٩ -

لجأ إلى كهف في أوعر منطقة. لم يكن كهفاً مثل الكهوف ولكنه شق في جدار صخري يؤدي إلى القمة. تجنّب الاعتصام بالكهوف السفلية لأنها معرضة لتفتيش العدوّ قبل أي مكان في الجبل. الكهوف السفلية ستكون أول هدف يقصده الرعاة الذين يستخدمهم هؤلاء الأغـراب الآن لتدنيس الحمادة البكر. الحمادة الآن مطوّقة بالغزاة. الطليان ينتهكونها من الشمال، وقبائل آير تنتهكها من الجنوب. هو مخنوق. هو محاصر، سجين. الإنسان قادر أن يحوّل حتى صحراء الله الواسعة إلى سجن أبشع من سجن القائمقام التركي الذي رأى أطلاله في «آدرار». هو مخنوق. لأنه مقطوع. الـويل للمقطوع. حتى قبيلته لن تهرع إليه. والأوباش الذين يـطاردونه يعـرفون ذلك. اختاروا الوقت المناسب. خـلافه مـع أبيه أولاً، ثم انفصـاله عن القبيلة. ثم القطيعة الأبدية بعد فضيحة التبر. القبيلة ستتبرأ منـه إلى يوم القيامة عندما تسمع بعاره. هذا خلق الظرف الملائم، مهّد الطريق لمطارديه الأوباش. وهم حريصون على اقتناصه ليس للانتقام لقريبهم القتيل ولكن لعجلتهم في أن يفرغوا من الثروة، في أن يزيحوا الصخرة التي تحول بينهم وبين اقتسام الورثة. إذا مات الغني غدراً تسابق القاصي والداني للانتقام له، ليس حبّاً و لا حرصاً على الـدم المراق، ولكن لإيجـاد الطريق إلى ثروته، لإيجاد مبرر لنيل النصيب من الثروة. هو يشقى ويقاتل مردة «بامبارا» ويعرّض جسده لسهامهم المسمومة كي يستولي على الذهب، ثم يموت

فتسقط الثمار بين أيدي الجبناء.

هكذا هي الدنيا. الجبناء هم الذي يجنون الثمار دائماً. ولسوء حظه أنه حجر عثرة في طريقهم. لن يهنأ لهم بال، لن يناموا الليل، حتى يمزقونه. حتى يمحونه، ليواصلوا سعيهم إلى الذهب. إلى ذرات التبر. لعنة الله على التبر. كله بسبب التبر. دودو أيضاً قضى عليه التبر. ليس هو المسؤول عن رقبة دودو، التبر هو المسؤول. ولكن من يفهم؟ هل فيهم عاقل واحد يستطيع أن يفهم الآن؟ العقلاء في بيوتهم. العقلاء في آير. العقلاء لا يقطعون مسيرات شهور كي يطاردوا رجلاً وحيداً في جبل الحساونة طمعاً في الذهب.

قبل أن يستقر في الشقّ تفقّد الجبل الجليل الممتد من الغرب خاشعاً، ساجداً نحو الشرق، صوب القبلة. ينسج لقمته العالية عمامة زرقاء من قبس الفجر الصحراوي المسحور. ويكتب، مع الشروق، ويكتم السرّ الذي حفظه من فم الملكوت في الليل.

هذا السرّ هو الذي يهبه هذا الجلال.

فكم هي عارية وكم هي خفية هذه الصحراء!.

هذا السرّ. هذا الخاطر الخفي الهائم في الفضاء. الإحساس المبهم المعمم بثنايا الظلمات والسكون، هذا الذي تحسّه ولا تتلمّسه هو الذي سجد له أوخيّد وتوسل إليه. طلب منه، في تلك العشية عندما ودّع أبلقه وراه يطفو ويغرق في السراب الفضي عند الأفق، أن يحميه من الشرّ ويحفظه من الحسد والحقد ويدبر لهما لقاء قريب. ولم يهتف في دعائه السرّي للسرّ أن يجعل اللقاء في ساعة خير، ولم يختم التوسل بآية الكرسي ولا بأي سورة من القرآن، كما لم يتعوذ، في صلاته، من الشيطان الرجيم، فتشاورت القوى الخفيّة على عجل وعرف الشيطان كيف يحشر أنفه في الجمع ليعجّل في إتمام طقوس اللقاء ولكن على ساحة أخرى.

وقبل أن يشهد أوخيّد تلك الاستجابة المشؤومة حصّن نفسه داخل الجحر المنيع. سدّ فوهة الشق بالأحجار وحشر جسمه في حبسه الجديد. دخله في الليل، ونام جالساً ثانياً ركبتيه إلى صدره. وفي النهار رأى رسوم الأولين. كان الجدار العمودي للشقين مزيناً بالصور الملونة. على يمينه قطيع من الجاموس البري ينتشر في المرعى ويرتع بكسل. بعض الرؤوس تنحني لتلتهم الكلأ، ومجموعة أخرى ترتفع رؤوسها باسترخاء مما يقطع بأنها تمضغ أو تجترّ. على يساره نحت هؤلاء السحرة مشهداً ساحراً. مجموعة من الرعاة تطارد ودّاناً متوجاً بقرنين كبيرين يتجه إلى جبل بعيد. الصيادون يمسكون بالرماح والبعض الآخر يلوّح بالقوس ليطلق النبال صوب الضحية. ومن الصعب التكهّن بنتيجة المطاردة، لأن المسافة بين الودّان والصيادين لا توحي بأنه سينجو برغم وجود الجبل في نهاية الطريق. الرسّام صنع الجبل، في الأفق، كي يضع الأمل أمام الودّان المسكين. الجبل هو الأمل الوحيد. هو الخلاص. وهو يعرف ذلك. ولذا يضاعف الجهد. واضح أنه منهك. هيئته توحي بذلك. هيئته ثقيلة. ولكنه يستمد القوة من المجهول. المجهول الذي يدفعنا كي نحب الحياة. والصيادون يعرفون أيضاً أنه سيفلت إذا اعتصم بالجبل. فيضاعفون العدو. ويدققون في تصويب النبال والرماح. الودّان لم يصب بسهم ولا برمح وبرغم ذلك فإن أمله ضعيف في النجاة. لا يعرف أوخيّد لماذا خامره هذا اليقين: الودّان لن ينجو. لا يعرف كيف استطاع الرسام الساحر أن يوحي له بهذا اليقين المزعج، الكريه. ولا يعرف لماذا أيضاً أحس بالقلق واليأس بسبب هذا الإيحاء.

- ٣٠ -

وصلوا بعد يومين.

سمع همهمة في الفجر فظنّ أنها تمتمات الجن العادية. تمتمات الجن في جبل الحساونة معروفة. تعوّد عليها وألفها كل من حطّ برحاله بجوار الجبل أو عبر الوديان السفلية في الأمسيات.

الجبناء يتحاشون المرور بالسلسلة. يظن هؤلاء البلهاء أن الجن أشر من البشر. هو لم ير حتى الآن أشر من الإنس. الأجدر بالخائفين أن يخافوا الإنس. مسكين من ظنّ أن الإنس إنس. مسكين من سلّم أمره لإنسان. مسكين من رهن رأسه لإنسان.

لقد جرّب ما معنى أن يرهن المرء رأسه للإنسان. وحده يملك الحق في أن يطلق هذا التحذير. ومن يجرؤ ويدين الإنسان إلا من جرّب الإنسان؟ أي إنسان يفتح فمه بإدانة الإنسان إذا لم تكن رجلاه في النار؟ اللّي رجليه في النار... ما أشقى من «رجلاه في النار»! وما أقسى قلب من جرّب النار!.

ثم اختفت الهمهمات.

كَمَنَ في مخبئه حتى الأصيل من دون أن يسمع صوتاً. سمع طنين أذنيه في ملكوت السكون. هل ذهبوا أم أن ما سمعه وهم؟ أم أنه تمتمات الجن

حقاً؟ ولكن الجن لا يتمتم في الفجر. الجن يتمتم في قلب الليل. الفجر حرم الجن المقدّس. في الفجر يخرس كل شيء في الحمادة. والجنّ ينزل إلى دنياه السفلية.

بلل ريقه بجرعة ماء من القربة. أحكم ربط فمها وأزاح حجر المدخل. غمره النور فأغمض عينيه. زحف خارجاً من الشقّ كالعظاءة. شمس الأصيل قاسية. نزل السفح الشمالي كي يتفقّد آثارهم. ذهب إلى الناحية التي سمع منها الهمهمة في الفجر. لم يقطع مائة خطوة لمّا ارتطم بأحدهم. يتقوّس خلف صخرة وينحني فوق نعليه. وفي اللحظة التي رفع فيها الرجل رأسه كان أوخيّد قد توارى خلف الصخور. هل أبصره؟ إذا لم يره فلا شك أنه رأى شبحه أو ظلّه. إذ أسرع الرجل الخطو ودحرج الأحجار عبر السفح مما يقطع بأنه انتبه وهو ـ الآن ـ يسعى أو يتخذ التدابير. هذا يدل أن صمتهم كان باتفاق. الصمت المشبوه الذي اعقب الهمهمة في الفجر كان مؤامرة.

زحف أوخيّد بين الأحجار محتمياً بالصخور. صعد السفح بيديه ورجليه معاً. من جبينه سال العرق وتسابقت دقات القلب. قبل أن يبلغ فم جحره بخطوات اصطدم بكائن. يا ربي، الودّان. ودّان كبير، أشعث، معقوف القرنين. الودّان أيضاً دهش. توقف في مواجهته فجأة. لم يهرب. نظر في عينيه. تبادلا نظرة طويلة. في عينيه رأى أوخيّد أسراراً كثيرة. وعرف لماذا يتخصص بعض الناس باقتناص الودّان. الودّان ليس شاة أرضية. إنه شاة سماوية. ملاك سماوي. رسول. الودّان، مثل الأبلق، رسول. ما أندر مثل هؤلاء الرسل.

سمع ضجة الأحجار المتدفقة عبر السفح فعرف أن العدوّ يقتفي أثره. ترك الودّان المدهش وقفز إلى جحره. هو الذي قفز وترك الودّان واقفاً. الإنسان هو الذي هرب من أمام الودّان الرباني العظيم. هذا يحدث لأول

مرة في جبل الحساونة! كَمَنَ في المخبأ وسدّ الشقَّ بالحجر. كتم أنفاسه وأنصت لدقّات قلبه. لم يكن انفعاله بسبب المطاردة أو خوفاً من العـدوّ. ولكن بسبب اللقاء. تذكّر الودّان المنهك المرسوم على الجدار فبدأ يرجف.

انطلقت الطلقة.

تردد صداها في الجبل طويلاً. السكون عندما يكون عميقاً وطويلاً فإن صدى الرصاص يكون طويلاً وعميقاً أيضاً. عرف ذلك عندما كـان يتردد على الأودية المجاورة لصيـد الغزلان في سنـوات الرخـاء قبل أن يقتحم الطليان البلاد ويدفعوا بالقبائل إلى الهجرة.

هل أصابوه؟.

تنادوا. وبعد قليل انطلقت الهرجة. أصابوه.

اقترب أحدهم من مخبئه. صاح لأصحابه:

ـ لا أثر لأقدام إنسان هنا. هنا كان ينام الودّان. هذه آثاره. وهذا روثه أيضاً. أظن أنك لم تر إنساناً. شبح الودّان هو الذي رأيته.

بكى أوخيّد.

للمرة الثانية يبكي في حياته. لم يستطع أن يحبس الدموع في عينيـه فسالت وحدها. الله بعث له برسول فقتله الأشرار. الرسول محا آثار أقدامه أمام المأوى. وترك بعراً أيضاً. فهل هذا ما أراد أن يقوله له بتلك النظرة الخفيّة؟ هل قال له: «جئت كي أفكّك منهم فانجُ بنفسك»؟ يا ربي، لماذا يسقط الأبرياء بيد السفلة؟ يا ربي، لماذ يسقط الرسل بيد السفلة؟.

سمع الهرجة. بعضهم يسلخ. وبعضهم يجمع الحطب. أحدهم رفع صوته بأغنية.

- ٣١ -

في قبره أكل حبّات التمر على رائحة الشواء. الرائحة تصاعدت في قمة الجبل طوال الليل وتسللت عبر شقوق الأحجار وغزت القبر.

في آخر الليل سمع أحدهم يقضي حاجته بجوار قبره ويحدّث نفسه كالجن:

ـ أنا لم آكل ودّاناً. لم آكل ودّاني بعد. ودّاني هرب. البلهاء لا يصدّقون أنّي رأيته. رأيت ودّان العمر. ولكن لن يهنأ لي بال حتى أهنأ بصيد العمر. كيف أعود إلى الواحة بدون رأسه؟ إذا عدت إلى «آدرار» بدون رأسه عدت إلى «آير» بدون نصيب.

ثم سمعه ينتحب.

لم يصدّق أذنيه. كتم أنفاسه وسخّر حواسّه للاستماع. لم يتوهم. الرجل يبكي. هذا رجل مخيف. إذا بكى رجل في الصحراء طلباً لشيء فلا بد أن يناله يوماً. وهذا الرجل يخطط للاستيلاء على رأسه. يبكي لأنه لم يفز برأسه. يا ربي! هل أصبح رأسه البائس بهذه الأهمية فجأة؟ لا. ليس رأسه هو المطلوب. التبر هو المطلوب. الراعي المهاجر لم يخطىء، وتخميناته وتكهناته بشأنهم لم تخطىء. غايتهم هي التبر. هي الكنز. وهو حارس الكنز. الثعبان الذي يحرس أي كنز. وكي ينالوا الكنز لا بد أن

يقتلوا الثعبان الذي يعترض طريقهم. تذكّر دعاء الشيخ موسى: «يا رب. لا تجعلني حارساً على كنوز الدنيا». الآن فهم معنى هذا الدعاء الأثير. لن يهنأ بال لحارس الكنوز. السيف دائماً على رقبة الحارس.

فاض قلبه بالقلق. اكتشف أن جحره في رأس الجبل ليس آمناً. بكاء الرجل طنّ في أذنيه طوال الليل. حين يتحسّر الرجل فثمة خطر. إذا بكى الرجل وراءك فلا بد أن يضع يده عليك. فأين الأمان؟ لا أمان في أي مكان. الأمان في الحركة. في الهرب. في الجري عبر الخلاء.

قرر أن يهجر الجبل. في الفجر. في الغد. في أوّل فرصة. في اغفاءات المتقطّعة زار بيت الظلمات. وفي الصباح عاد الأبلق قبل أن يجد فرصته في الفرار.

- ٣٢ -

سمع جلبتهم عند السفح وهم يحومون حوله، ثم يحاصرونه. تعالت صيحاتهم. مرّ زمن قبل أن يسمع صوته. استغاثته:

- آ - آ - آ ع - ع - ع . . .

ماذا يفعلون؟.

عادت الاستغاثة الأليمة أقوى من قبل. تردد صداها في قمة الجبل طويلاً. ثم. . ثم غزت أنفه رائحة الشياط.

فهم. إنهم يكوونه بالنّار. يحرقونه. يحرقون قلبه. لن تصطاد الصقر إلا إذا عبثت بعشّه. بفراخه. عرفوا عشّه. خدم دودو دلّوهم عليه. وربما كان الراعي الحكيم، ذو الفم الخالي من الأسنان، بينهم. دليلهم. قال لهم إن قلب الصقر في ولده. ولن تقتنصوا الصقر القابع في القمم إلاّ إذا أحرقتم قلبه بالنار. الشيخ موسى على حق. الشيخ موسى على حق في كل شيء. لا يمل الشيخ من القول: لا تودع قلبك في مكان غير السماء. إذا أودعته عند مخلوق على الأرض طالته يد العباد وحرقته. والشيخ موسى لا يرهن قلبه. لم يرهنه قط. لم يتزوج ولم يلد ولم يربّي قطعان الأغنام أو الإبل. ربما كان هذا هو سبب تحرره من الهمّ. لم يره غاضباً. ولم يره ضاحكاً. ابتسامة واحدة، ثابتة، مطبوعة على شفتيه. وها هو الآن يقف على حكمته.

هو أخطأ فأودع قلبه لدى صديق. لدى الأبلق، فلحقته اليد الآثمة. يد الإنسان.

عادت الاستغاثة تشق سكون الصحراء، وتتردد في كل السلسلة الجبلية:

- آ - آ - آ - ع - ع - ع . . .

غزت أنفه موجة جديدة من الشياط. حملتها إلى قبره نسمة شمالية لافحة فاحترق قلبه. الشياط في قلبه. قلبه هو الذي يحترق.

أزاح الأحجار التي تسدّ الشقّ فأعماه النور. زحف على أربع مغمض العينين. رائحة الشياط تشتد. تمتزج بالنسيم اللافح وبرائحة الحطب والدخان. رآهم يتكأكأون حوله عند السفح. بعضهم يشدّه بالحبال والبعض ينشغل في تحمية السكاكين والمدى في الموقد المشتعل.

رائحة الشياط لا تطاق. يختنق بالرائحة. رائحة قلبه المحترق. اندهش أنه لم يتحوّل إلى فحمة بعد.

تدحرج عبر السفح. سلخته الأحجار ومزّقت الصخور ثوبه. جرّدته حجرة ناتئة من عمامته. وصل الموقع ممزقاً، مجرّحاً، حاسر الرأس.

وقف أمامهم. تفحصوه صامتين. تفحصهم صامتاً. لم يكن الراعي الحكيم بينهم. أحسّ بارتياح غامض. مجرد غياب الراعي ذي الفم الخالي من الأسنان زرع في قلبه المحترق طمأنينة غامضة. وضعوا القيود في يديه دون أن يتبادلوا كلمة.

الأبلق يخوض في الحروق والدم. وسموا وجهه أيضاً. شقوا فكّه الأيسر بالسكين المشتعل، فتآكل ونزّ منه الدم.

قال رجل بدين، قصير القامة، تفوح منه رائحة الشياط:

ـ تعرفون كيف انتقمت تانس من ضرتها الشريرة؟(*).

ثم وجّه الخطاب إليه:

ـ تعرف كيف لاقت الضرّة جزاءها؟.

قيدوا يديه ورجليه بالحبال. جاؤوا بجملين. شدّوا اليد اليمنى والرجل اليمنى إلى جمل، وشدّوا اليد الأخرى والرجل اليسرى إلى الجمل الآخر.

صاح البدين:

ـ السوط! السوط!.

أحرقوا أجسام الجمال بألسنة السياط. قفز أحدهم نحو اليمين، وقفز الآخر في الاتجاه المضاد. وجد نفسه في البرزخ. سقط من حافة البئر. في المسافة بين الفوهة والماء رأى الفردوس. زغردت الحوريات، وناحت الجنّيات في جبل الحساونة. و...

سمع صوتاً:

ـ شيوخنا لن يصدّقونا إذا لم نأتهم بدليل!.

زحف الجسد الممزّق، الدامي. زحفت الأشلاء. اجتث الجمل الأيمن، الجمل الأقوى، فخذ أوخيّد الأيمن، وذراعه اليمنى. انتزعتا من المنبت. وبرغم البدن الممزّق، رفع أوخيّد رأسه مستعيناً بصدره ويده اليسرى.

أقبل البدين، وفي يده لمع سيف. طلب مساعدة أحدهم، فرفض، والتفت صوب الجبل، وشرع يتقيأ بصوت عال. جاء آخر، وأمسك بالرأس

(*) تعرفون كيف انتقمت تانس من ضرّتها الشريرة: تقول الأسطورة أن تانس أمرت العبيد أن يمزقوا الضرّة بين جملين يقودهما سائسان مجنونان يسيران في طريقين متعاكسين، عقاباً لها على تدبيرها المحاولة التي استهدفت حياتها (من أسطورة تانس وأطلانتس).

الحاسر. طار السيف في الفضاء، واغتسل بماء السماء.. بأشعة الشمس القاسية، ونزل على الرقبة..

انشطرت الظلمة بالقبس المفاجىء. ضرب بيت الظلمات زلزال. انهار الجدار الفظيع بضربة سيف النور، فتبدى الكائن الخفي ـ ولكن.. بعد فوات الأوان لأنه لن يستطيع الآن أبداً أن يحدّث أحداً بما رأى.

١٩٨٩